إيبولا ٧٦

أمير تاج السرّ

رواية

دار الساقي

صدر للمؤلّف

في الرواية:

- **صيد الحضرمية**، ط ١، مركز الدراسات السودانية، الخرطوم ٢٠٠٢؛ ط ٢ مركز الحضارة العربية، القاهرة ٢٠٠٤.
- **مهر الصياح**، دار ورد، سوريا ٢٠٠٤، ط ٢ الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠٠٨.
- **توترات القبطي**، ثقافة للنشر، أبو ظبي؛ الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠٠٩، طبعتان.
- **زحف النمل**، ط ١ دار العين، القاهرة ٢٠٠٨، ط2 ثقافة للنشر، أبو ظبي ٢٠١٠.
- **العطر الفرنسي**، الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠٠٩.
- **صائد اليرقات**، ثقافة للنشر، أبو ظبي؛ دار الاختلاف، الجزائر ٢٠١٠، طبعتان.
- **تعاطف**، ثقافة للنشر، أبو ظبي ٢٠١١.
- **رعشات الجنوب**، ثقافة للنشر، أبو ظبي ٢٠١١.
- **أرض السودان** – الحلو والمر، الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠١٢.

في السيرة:

- **مرايا ساحلية**، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٠؛ دار العين، القاهرة ٢٠١١.
- **قلم زينب**، وزارة الثقافة، قطر ٢٠١١.

في الشعر:

- **أحزان كبيرة**، وزارة الثقافة، قطر ٢٠٠٥.

صورة الغلاف : أيمن عادل محمد باقر خليفة
خطوط العناوين: علي عاصي

أميرتاج السرّ

إيبولا ٧٦

دار الساقي

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2012

ISBN 978-1-85516-861-9

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 5342/113، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+

email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

في زمن المأساة،
تبدو الأشياء حقيقية.
العيون حقيقية.
اليد التي تحيّي الجار حقيقية،
والقمر ليس محض خيال بعيد، لكنه حقيقي.
تسألني حبيبتي عن معنى الحقيقة،
وأحيل سؤالها للمأساة،
يسألني العابرون عن معنى الدم الحقيقي،
وأقول: الذي تزرعه المأساة.

في شهر أغسطس عام ١٩٧٦، ضرب فيروس إيبولا القاتل، الذي يسبّب الحمّى النزيفية، مناطق عديدة من جمهورية الكونغو كينشاسا، ومنطقة أنزارا الحدودية، في جنوب السودان، وقيل إن عاملاً بسيطاً في مصنع للنسيج، هو الذي جلبه. هذه ليست قصة عامل النسيج، ولا غيره من الشخوص الذين وردوا في هذا النص، ولكنها محض خيال بحت، لا علاقة له بالحقيقة مطلقاً. حتى ما ذكر عن التمرّد والحرب الأهلية، ليس صحيحاً، ولا يجب أن يحال إلى تواريخ حقيقية.

1

تتبّع إيبولا القاتل، لويس نوا ظهر ذلك اليوم الحار من شهر أغسطس، عام ١٩٧٦، وهو يتحرّق شوقاً ليسكن دمه.

كان لويس من منطقة أنزارا الحدودية، في جنوب السودان، عامل نسيج بسيطاً في مصنع صغير، لإنتاج الألبسة القطنية، يملكه ويديره محارب سابق في جيش المتمرّدين على سلطة الخرطوم المركزية، اسمه جيمس رياك، وقد جاء لويس إلى الكونغو في زيارة حزن مباغتة، حين علم مصادفة من أحد العائدين من كينشاسا، بموت امرأة دغدغت قلبه وشهوته في العامين الأخيرين، مستولية على كل ودّ كان يكنّه لزوجته في السابق. لم يمكث في وسط العاصمة كينشاسا إلا بمقدار تلفّته في حذر، وعبوره الطريق غير المرصوف، بين موقف حافلة الركاب الصغيرة التي أقلته من أنزارا، وموقف حافلة أخرى، أراد استقلالها إلى مقبرة في الأطراف، حيث يرقد المئات من ضحايا إيبولا، حصدهم في انطلاقته الكبرى المحيّرة تلك.

كان إيبولا حوله، وقريباً جداً منه، ويتحيّن الوقت المناسب لافتراسه. دخل المقبرة المسوّرة بالحجر الأبيض، والمحاطة بأشجار بعضها مورق وبعضها ذابل، والفيروس موجود، تحمله عشرات

الأجساد التي صادفها هناك، كان في دم المتسوّلة العجوز الغائرة الخدين، التي مدّت له يدها في صمت، ومنحها نصف فرنك وهو يدخل، في دم حارس الأمن المتسلط الذي يقف عند البوابة، متكئاً على سلاحه القديم ونظراته تتحاوم بين الداخلين والخارجين، في دماء الزوار العديدين الذين ألقى عليهم نظرة هائمة أو لم يلق، وحتى حين انحنى على قبر المرأة التي جاء من أجلها في تلك الرحلة الشاقة، وبكى بشدة، كان ينحني ويبكي على قبر امرأة، كان الفيروس في جسدها الميت، وقضى عليها منذ يومين فقط.

لا يدري إيبولا القاتل، الذي يروّع الناس منذ فترة في تلك البلاد، ما الذي لفت نظره في لويس نوا، ليضطرب كل ذلك الاضطراب، ليقرّر الهجرة عبر دمه إلى بلاد أخرى، بعد أن كثر عليه النباح في بلده الأصلي، وجنّدت الدولة ثعابينها وعقاربها وكل ما تمتلكه من خير وشر لملاحقته، واكتشاف هويته، ووصلت عينات من دماء ضحاياه العديدين، إلى دول العالم المتقدمة مثل أميركا وكندا، وأستراليا، والآن يدرسونها بعمق، تحت عدسات مرعبة، للعثور على لقاح ضده، أو دواء يعدمه إلى الأبد.

لم يكن لويس نوا في الواقع، جذاباً، لم يكن وسيماً أبداً، أنفه في غاية الضخامة وفيه بثور بيضاء، تختفي وتعود، كتفاه أعرض مما ينبغي لكتفين، شفتاه مشققتان بفعل الحر، وجفاف الحلق، وفي مقدّمة جبهته العريضة، نُحتت بالنار، تلك الفصوص المقيتة التي اشتُهرت بها قبيلته، وتحمل معنى مقدساً.

كم كان عمره؟ لا أحد يدري بالتحديد، لكنه يبدو في الأربعينات،

أو بداية الخمسينات، تاريخه المرضي يبدو ناصعاً حتى الآن، لا ضغط ولا سكر، ولا خفة في النظر، ولا احتقان في الكلى أو البروستاتا، ولا شيء آخر باستثناء حمّى المستنقعات التي تنشط في خلاياه أحياناً، والتي ليست مرضاً على الإطلاق في تلك المناطق. تاريخه العاطفي سخيف بعض الشيء، فقد بدأ ترنّحات الحب في سنّ مبكرة، غازل ست عشرة فتاة من جيله، وأجيال أصغر وأكبر، و لم تستجب له سوى واحدة كانت شبه عمياء، ما لبثت أن فارقته بلا سبب. تزوج منذ سبع سنوات، بامرأة اسمها تينا أزاقوري، من قبيلة أخرى غير قبيلته، تعيش معه في أنزارا وتعمل مع أمها في بيع الماء في الشوارع، وكانت عرضة لست عمليات اغتصاب ناجحة، واثنتين غير ناجحتين تماماً، و لم يهجرها لويس عملياً بسبب تلك الانتهاكات، لكن هجرته العاطفية لها ابتدأت منذ عامين فقط، حين تعرّف إلى هذه المرأة التي يبكي عليها الآن بكامل دموعه، ألين، أو إلينا كما كان يسميها، لا يهم، فقد تخلص منها إيبولا العنيف إلى الأبد، ولا يعرف لماذا تخلص منها ومن كل أولئك الذين يرقدون بجوارها، ويبكي عليهم أهل، هم أيضاً في طريقهم إلى الزوال، قريباً على يديه، ولا يعلمون شيئاً حتى الآن، يتفّهون من نشرات الأطباء الصحية، ومحاولات الدولة تنبيههم لخطر غير معروف الهوية جيداً، يلاحقهم، يعتبرون ما يجري في القرى من موت، يعقبه موت، يعقبه، موت ثالث، ورابع، وألف، إجراءات انتقامية، يبعثرها ساحر شرير، و لم يكن ذلك الساحر موجوداً إلا في مخيّلاتهم الفقيرة.

كان نوا يزور تلك المرأة التي تعرّف إليها في نزل ضيّق، في أطراف

العاصمة كينشاسا، أقام فيه مرة أثناء حضوره بغرض السياحة، وكانت من خادمات تنظيف الغرف غير المتطلعات، يأتيها مرة أو مرتين في الشهر، محمّلاً بأشواق المحبين كلها، وبكيس من الطعام الجيد، يكفي ليومين، يقضيهما شهوانياً، معربداً، ملتصقاً بشياطين الفجور كلها، ويذهب لينخرط في العمل، وفي داخله أشواق بلا حدود، لعودة أخرى أشد جنوناً ورغبة، وكان لحسن حظه غائباً، حين سكنها الفيروس القاتل، وتوغل فيها حتى نزفت دمها الأخير. لقد دخلها عن طريق رجل آخر، كان يأتي في غياب نوا، فلم تكن وفية له أبداً.

الآن، الرجل المرشح ليغزوه إيبولا، ويهاجر عبر دمه إلى دولة أخرى، يعربد فيها بنفس جنونه، قد كف عن البكاء المر، مسح عينيه بطرف ثوبه الأفريقي ذي الألوان المزركشة، اقتربت منه بائعة أزهار حافية، وضئيلة الجسم، اعتادت ارتياد تلك المقبرة القريبة من بلدتها الصغيرة، وبيع العزاء للحزانى، و لم يدخلها الفيروس بعد. بالرغم من قلة اكتراثها، وإمكانية أن تسقط في أي لحظة. لمسته الفتاة في كتفه، بزهرة بنفسجية ذات رأس أسود، ونهض واقفاً ملسوعاً، اشترى الزهرة نفسها وزهرتين أخريين من نفس النوع، غرس بضاعته، في تربة القبر الرطبة، وابتعد عن المكان، وعيناه ما تزالان، خارج سيطرته، كانتا شبه مثبتتين على القبر، حيث ترقد إيلينا الضائعة.

لا يعرف أحد إن كان أولئك الرجال المتباينو الأعمار والسحنات، الذين أحاطوا به بغتة، وتحدثوا إليه أكثر مما يجب، وبأصوات هامسة، من معارفه، أم مجرد حزانى آخرين أرادوا أن يشاركوه فكرة ما، الشيء المعروف، أن معظمهم كانوا يحملون

الفيروس في الدم، ولن يلبثوا أن يتساقطوا تباعاً في وقت قريب.

كان أنف لويس نوا محجوباً عن الشم في تلك اللحظة، فقد أرخى شال القطن الذي يضعه على كتفه، وهو من منتجات المصنع الذي يعمل فيه، غطى به نصف الوجه حتى يختفي جزء من كآبة الفقد، و لم يكن يدري أنه يتقي بذلك، إصابة محتملة، استعد لها إيبولا المنتشر في رذاذ التنفس.

في طريقه من باب المقبرة، نحو الطريق العام، إلى حيث يمكنه العثور على عربة تقله إلى وسط المدينة، اعترضه أحد الذين أخفق الفيروس في اقتناصهم على الإطلاق، عازف الغيتار الأعمى الشهير، روادي مونتي، الملقب بالإبرة في محيط معجبيه ومنتقديه معاً، وكان شديد الحرص في حياته كلها، ووسيماً برغم عينيه الهائمتين بلا رؤية، وقادراً على شم البشر ومخلفاتهم من على بعد عشرات الأمتار، إضافة إلى كونه متأثراً بالغرب في ثقافته، ويزعم أنه تلقى تعليمه في جامعة بروكسل، وكرّم هناك باعتباره أول وآخر أفريقي بلا بصر، يتخرج في تلك الجامعة. كان ذلك مجرد ادّعاء، خارج نطاق الإبداع، فكينشاسا التي يقطنها الإبرة منذ ستين عاماً، بكل أحيائها وسكانها، تعرف أنه ادّعاء، وأن شهادته في الموسيقى، شهادة أفريقية بحتة، حصل عليها في بيته وبجهود مضنية، لكنه زار بروكسل حقيقة، وترنّح بغيتاره في «غاليري ستريت»، أكثر شوارعها ازدحاماً ورهبة، وشارك في كورال حماسي، على مسرح « دي لا مونيه» الكبير، أعد لمؤازرة العالم الثالث المنكوب.

لم يكن عازف الغيتار، الذي تلازم خطواته فتاةٌ مليحة في أوائل

العشرينات، اسمها دارينا، ويبدو أنها عصاه التي يتوكأ عليها، يريد شيئاً من لويس نوا، ولا كان ساكن أنزارا الحزين يمثّل ميداناً ممهّداً أو غير ممهّد، تركض فيه خيول عازف غيتار قديم وشهير ملقب بالإبرة. إنها عادة، تعوّدها روادي منذ كان صغيراً في السن، أن يعترض المارّة في الطرق أحياناً بلا هدف، وأحياناً لاستطلاع الرأي في نجوميته، بعد أن غدا نجماً. يمكن أن يعترض أمه، لو خرجت من البيت، يعترض مسلحين خطرين، ويعرف أنهم خطرون، ويعترض حتى نفسه، لو صادفها مارة في الطريق، ووجوده اليوم عند المقبرة، كان بلا هدف، لقد جاء ليعترض الطريق فقط. وقد سافر مراراً إلى أنزارا وأماكن أخرى مجاورة، وبلاد بعيدة، بنفس طبائعه الغريبة، أحيا حفلات صاخبة، ممتلئة جمهوراً ونزقاً وفتيات مليحات، لم يبصرهن بالطبع، وأخرى في غاية الكساد، لم يحضرها سوى الذين نظموها، وبعض هواة حضور الحفلات، حتى لو كانت بلا معنى. وأتيح له مراراً أن يلتقي بسلاطين القبائل، ونواب المجالس الشعبية، يتعشى على موائدهم، وبعض أثرياء الحروب هنا وهناك، يطربهم بقليل من المال.

مد روادي يده الرشيقة التي كانت تستحق لقباً رسمياً ممجداً، لم تحصل عليه أبداً، تحسّس بها جبهة نوا، مررها على دوائر الفصد المقدسة المقيتة أولاً، وتعرّف إلى قبيلته بنفس السهولة التي يتعرف بها إلى تنفسه، ثم تحسّس الشال الذي يرتديه، قال:

– سامحني يا سيدي على اعتراضي طريقك بهذه الصورة المزعجة، وفي وقت غير مناسب... لقد أعجبني لون شالك. الأزرق لوني المفضل.

كانت مصادفة، أو لعلها ليست مصادفة على الإطلاق، أن شال نوا كان أزرق اللون، وملابس روادي الأنيقة المكونة من حلة كاملة، وقميص حريري، زرقاء اللون أيضاً.

– شكرا.

قال نوا، وأحكم لفّ شاله حول رقبته، وغطى أكبر جزء ممكن، من وجهه، كانت كآبة الحزن مسيطرة بالكامل.

كان يبتعد، ويسمع عازف الغيتار يصيح من خلفه:

– موعدنا في جنوب السودان قريباً، في بلدك أنزارا، أيها الرجل الحزين... سأحيي حفلاً صاخباً هناك... كن موجوداً لتستمتع، وتنسى.

كان من المفترض أن يندهش نوا في تلك اللحظة، على الأقل من مسألة لون الشال، باعتبار أن الفصدات الركيكة على جبهته، هي التي دلت العازف على قبيلته و موطنه، لكنه لم يفعل، ولعله الحزن الذي ما زال يفور في دمه، ما أجّل تلك الدهشة، أو ألغاها تماماً من قوانين الانفعال. عبارة العازف الأعمى بدت له برغم إدهاشها، مثل أيّ عبارات أخرى، يمكن أن يسمعها يومياً في مصنع ألبسة القطن الذي يعمل فيه منذ سنوات، وسط زملاء بعيدين تماماً عن الإبهار، أو في السوق، عند باعة اللحم والخضروات، وتجار السلع المستهلكة من العرب، أو عند منقو نقوشوا الحلاق الذي يقص الشعر لثلثي مواطني أنزارا الرجال، ويبدو سعيداً بذلك الشقاء المستمر. والحقيقة وهو يستعيدها ثانية في ذهنه، بدت له كأنها عبارات البيت الروتينية التي ترددها زوجته تينا في أذنه يومياً بلا انقطاع، منذ أن هجرها عاطفياً.

بمناسبة زوجته تلك، تذكر العشيقة الميتة، تذكرها بحدة، لدرجة أوشك فيها أن يعود إلى القبر الرطب مرة أخرى، يبكي ويغرس المزيد من الزهور البنفسجية ذات الرأس الأسود.

الذين تحدثوا معه في المقبرة، أخبروه باقتناع تام عن الساحر الشرير الذي يوزع الموت في عدد من القرى والمدن، بلا أي هدف معروف، وتفاعل معهم، ليس لأنه أراد أن يتفاعل، ولكن لأن نشأته وبيئته، ومستواه العقلي، كانت مهيّأة تماماً لمثل ذلك التفاعل، وبالرغم من أن السكان سمعوا عمّا يسمّى الفيروس الغامض، وقرأ المتعلمون منهم نشرات وزارة الصحة، المطبوعة بركاكة على ورق رخيص، واستمعوا إلى الراديو الذي اعتاد قطع أغنيات مجيدة وتراثية، مثل أغنيات دريدو لونوا، وسليمان أغو، وعلي فرتكاري، ومنليك الإثيوبي، وإذاعة أخبار القاتل الرهيب، كانت مسألة الساحر الشرير، هي الأقوى والأرفع شأناً، ومن ثمّ جنّدت كثير من القبائل، سحرتها المعتقين، زوّدتهم بخامات التعاويذ كلها، وأمرتهم بتعقب الشر في أيّ جحر من جحوره، ومنازلته حتى يسقط.

نوا من بيئة مشابهة، نفس الدماغ المعد سلفاً لتقبّل الأبسط، نفس تعرق اليدين بلا حر ولا رطوبة، نفس مستوى هرمونات الجسد، وتأخر ظهور الشيب في الرأس، وأشياء أخرى، من صميم ويلات أفريقيا. لذلك، باستثناء حزنه على العشيقة الضائعة، لم يضف إلى قاموس مشاعره في تلك الظهيرة الحارة، سوى سخط مكتوم، على ساحر الشؤم الذي أمات حبيبته، وتركه ضائعاً.

في طريقه إلى كينشاسا، على ظهر سيارة مكشوفة، بها دابتان،

توقفت له طواعية، وغازله سائقها الثلاثيني، بغمزة من عينه، وجد راكبين آخرين، رجلاً وامرأة، لم يسألهما و لم يسألاه، كان الرجل، يسعل بشدة، وكان سعاله مجرد أنفلونزا عادية ومسالمة، ليست في جرم إيبولا، وقد لاحظ أن المرأة التي كانت تجلس قبالته، على دكة حديدية، مضافة للعربة، تتوجّع بشدة، ويداها على بطنها المتكور، ولكن للأسف لم يستطع أن يستنتج أبداً، أنها في الشهر الأخير من الحمل، وتداهمها آلام الولادة الآن، والذي يسعل هو زوجها، ويذهب بها إلى أقرب مستشفى في كينشاسا...

ما خطر بباله في تلك اللحظة، شيء عن الشره، والإكثار في الأكل، والتخمة.

كان لويس يفكر ورأسه على كتفيه، متجاهلاً إيجابيات الطريق الوحيدة، من خضرة ممتدة على مد البصر، ولا يكاد يشم فراء البهيمتين المربوطتين بجانبه على ظهر العربة، حين صرخت المرأة الحامل. عند تلك اللحظة، وهو يشاهد الماء والدم يتدفقان من تحتها، خطر بباله، أنه عاش مع امرأتين، في بلدين مختلفين، لكن لا واحدة منهما أنجبت أبداً. وقبل أن تنقشع تلك الخاطرة عن ذهنه تماماً، أو تتوسع وتجر بعض الحسرات، وجد نفسه يقف متصلباً في الطريق، على تخوم كينشاسا، فقد أنزله سائق العربة بعنف، وهو يغمز له بعينه أيضاً، وانطلق حاملاً المرأة إلى حيث تضع، لم يفكر نوا في غمزة العين كثيراً، وحتى لو فكر، فلن يعرف خصوصيتها أبداً، لأنها في الحقيقة لم تكن صعلكة من سائق عربة مواشٍ، بل مرض مزمن يصيب عصب العين، وليس ثمة علاج له، في ذلك الوقت.

الآن ضحية إيبولا المفترضة في وسط كينشاسا العاصمة، بعد أن هبط من عربة نقل المواشي، ومشى على قدميه مسافة بشعة، قبل أن تتوقف له شاحنة قديمة جداً، يقودها كونغولي بعين واحدة. كان في شارع محترم جداً، ليس فيه شواذ ولا بائعات هوى متبرّجات، ولا شحاذون ملحاحون، ولا أي أحد من دعاة التحرر من التبعية الذين تمنى إيبولا كثيراً أن يلعق أرواحهم واحداً واحداً. كان الشارع ملكاً للساحر القديم، جمادي أحمد، ليس ملكاً حقيقياً بالطبع، ولكن الوجود اليومي المتكرر للساحر، وفي أي وقت، ومنذ سنوات طويلة، أوحى لأحد عمال البلدية المنبهرين بأدائه الكلاسيكي، أن يزيل تلك اللافتة المعلقة، التي تحمل اسم شارع زومبي، ويستبدلها بواحدة أخرى رديئة الخط، عليها اسم الساحر جمادي أحمد.

كان الساحر في تلك اللحظة، موجوداً، جمهوره لا يشبه جماهير السحرة المتميزين كثيراً، باعتباره فقد تميّزه منذ سنوات طويلة، وقد فقد أيضاً في السنوات العشر الأخيرة، مشجّعين يحق لأي ساحر حقيقي أن يفخر بحضورهم عروضه، فقد لاعبي الفريق الوطني لكرة القدم كلهم، لأنهم عرفوا سكة السفر والضياع في بلاد أشد جاذبية من بلادهم، وبعض السياسيين الطامعين في السلطة، لأنهم أعدموا بلا محاكمات في الشوارع، وكان يمكن أن يفقد قريبة من الدرجة الأولى، لرئيس إحدى الدول المجاورة، تأتي لمشاهدته عدة مرات في العام، وتدعمه بشيء من المال لولا أن جميع الانقلابات العسكرية ضد قريبها، لم تنجح قط.

توقف نوا عن سيره حيث أراد أن يتوقف بالضبط، وبدأ ينبهر

بالساحر الذي يشاهده لأول مرة، بالرغم من أنه زار كينشاسا عدة مرات من قبل، في تلك اللحظة التي وضع فيها الأخير، داخل كيسه القماشي، حمامة ترفرف، وأخرجها من ثقب في جانب الكيس، أرنباً برياً، أدخله إلى الكيس مرة أخرى، وأخرجه من الفتحة دجاجة بيضاء غزيرة الريش.

صفق نوا بتوتر، ولم يسمع سوى تصفيقه وحده، ذلك أن الحضور ألغوا عادة التصفيق منذ زمن، وتواطأوا في ما بينهم، على أن لا يصفق أحد مهما توتر، إلا لو جاء الساحر بحيل جديدة، وهو ما لم يحدث حتى الآن... أخرج الساحر من قبعة الدمور التي يرتديها، ست شفرات حلاقة مسننة، ابتلعها في تأن، وابتلع خلفها خيطاً قطنياً أحمر اللون، توتر نوا حتى ارتعشت يداه، استمرتا في الارتعاش وهو يلتقط فرنكاً كاملاً من جيبه، يلقيه في قدح الساحر شبه الخالي، وحين مد جمادي يده إلى حلقه، وأخرج الخيط وقد تضفرت فيه الأمواس بشكل متناغم، أعرب نوا عن اندهاشه الحقيقي، بأن ضحك، وأسرع للساحر، يحتضنه، لقد نسي أنه حزين على العشيقة الميتة، نسي أن في البلد قاتلاً مطلق السراح، وأن احتضان ساحر يؤويه الطريق، ولا تُعرف مصادر أكله وشربه، مخاطرة كبرى، لا ينبغي أن يتعرّض لها أحد.

لا أحد يدري لماذا لم يتقبل الساحر العجوز تحيّة نوا العاصفة، لماذا تنرفز وغضب، وضرب الأرض بقدميه، وألغى عرضه وباقي فقراته التي كانت ستستمر حتى منتصف الليل، وابتدأ يلمّ خامات العروض، يرصّها في صندوقه الكبير. عدد من الناس همهموا بتفسيرات محتملة،

كأن يكون مستاءً من طعم طبخة الفاصوليا بالمرق، التي التهمها قبل بداية العروض في ذلك المطعم القذر، كأن يكون سخيفاً، ولا يحب الغرباء، أو أن العناق المفاجئ لذلك الغريب، أفسد حيلة جديدة، كان سيفاجئ بها جمهوره، المترقب للتغيير. من وجهة نظر إيبولا، كفيروس قاتل، يترصّد نوا ويسعى للهجرة داخله، ليجرّب القتل في بلاد أخرى، كان الأمر سواء، ابتسم الساحر أو غضب، لا يهم في شيء، وربما كانت فرصة أكبر، ليبتعد ذلك الغريب المرهق، يلتصق بمصابين، حتى تكتمل المهمة، تلك اللحظة خاف إيبولا بشدة، خاف أن ينهي نوا جولته فجأة، ويتجه إلى إحدى الحافلات العائدة إلى بلاده، ويفقده، ليبدأ البحث عن زائر جديد.

وقف نوا مصدوماً أمام غضب الساحر المفاجئ، يطالعه وفي عينيه اللتين بدأتا تستعيدان الحزن على إلينا من جديد، نظرة تساؤل. من المؤكد أن جمادي أحمد انتبه لتلك النظرة، من المؤكد أنه قرأها، وتجاهلها عن عمد، وتحدث بالفرنسية، مخاطباً نوا، الذي كان لحسن الحظ قد عمل خادماً عند عائلة فرنسية، أقامت سنين في أنزارا، قبل التحاقه بمصنع الألبسة القطنية، وهو يشير إلى صندوق أدواته الخشبي:

– في المرة المقبلة، اقرأ هذا التحذير جيداً، قبل أن تنبهر.

التفت نوا، والجمهور كله إلى حيث الصندوق الخشبي الكبير، الذي كتب عليه بخط أحمر، واضح:

جمهوري الكريم، يرجى عدم المصافحة أو العناق المباشر مهما كان السبب.

الحقيقة أن هذه العبارة لم تكن جديدة، فقد ظهرت بظهور الساحر

نفسه، لكن أحداً لم ينتبه إليها من قبل أبداً، وطوال تلك السنوات، لم يحدث ثمة انبهار عنيف كالذي انبهر به نوا الآن، لينتبه أحد إليها، والآن أصبح في حكم المؤكد أن العبارة ستشتهر بشدة، سيجري تناقلها، وربما استخدمها الناس في حياتهم اليومية، كأن يكتب أحد على ملابس نومه: زوجتي العزيزة، يرجى عدم العناق مهما كانت درجة رغبتك وغليانك، أو يكتب تلميذ فاشل بشيء من التحوير، على ورقة امتحانه: أساتذتي الأجلاء، يرجى عدم إسقاطي، مهما كانت درجة غبائي، وربما أوحت للسلطة بقوانين جديدة، تصدرها، وتمعن بها في كمّ الأفواه، كأن يُكتب عنوان بارز على صحيفة محلية: بأمر من الحكومة، يرجى عدم الاحتجاج، حتى لو مات الشعب كله. كانت عبارة خطرة، هكذا صنّفها أحد الصحافيين الموجودين مصادفة، وإحدى الناشطات في حقوق المرأة والطفل، وأقسم أحد المناضلين الذي خرج لتوّه من السجن، وجاء للترفيه عن نفسه، بضغط من هواء الحرية الجديد، أن لا يسمح لأحد بمصافحته أو عناقه، حتى ينتهي من ممارسة كل شعائره المؤجلة، ويسبّ السلطة، ويعود إلى السجن من جديد. بالنسبة للويس نوا، لم تفعل فيه العبارة، أكثر من اتساع نظرة تساؤله، وبالنسبة لإيبولا القاتل، فقد تململ بشدة، ذلك أن المطاردة طالت، وساكن أنزارا ما يزال بعيداً عن قبضته.

صحيح أن ذلك الشارع، شارع زومبي أو شارع جمادي أحمد، بحسب رغبة عامل البلدية المنبهر، كان محترماً، ولكن بشرط أن يكون الساحر موجوداً، وهو ما حدث طوال سنوات طويلة، وقد كان لا بد أن ترتسم دهشة كبيرة على كل الوجوه، حين استوقف الساحر

فجأة عربة كارو يجرّها حمار، مرّت بالمكان، رفع على ظهرها أدوات خداعه كلها، تلك المستخدمة يومياً، وتلك التي عشّش فيها العنكبوت، وغادر إلى مكان غير معلوم. لم يصدق الناس ذلك، تجمّدوا في أماكنهم، موقنين بأنها الحيلة الجديدة التي ينتظرونها منذ سنين، بدأوا يتلفتون، يتابعون برك المياه الضحلة، ونوافذ البيوت المتهالكة التي تطل على الشارع، وينقبون في جيوبهم، لم يكن أحد يدري ما الذي يبحث عنه بالضبط. الذي يعرفونه، أنهم يبحثون عن شيء ولا بد سيجدونه.

في تلك اللحظات المترقبة العنيفة، وبغياب الساحر جمادي، استطاعت كانيني، الفتاة التي ولدت في إسطبل خيل في الضواحي، من أب غير معروف، وعاشت منتهكة من ساسة الخيل، وملاك الأحصنة، ومراهقي المزارع المجاورة، حتى بلغت الثامنة عشرة، أن تتخلص من انفعالها، في البحث عن الحيلة الغائبة. تجولت بعينيها في الحاضرين الذين كانوا قرابة خمسين مندهشاً، وميّزت نوا، بوصفه الأكثر بعداً عن الدهشة، والذي أعانها بشدة على تحويل جزء من وقت شارع زومبي، إلى وقت آثم، حين أجبر ساحراً متمترساً منذ زمن طويل، على مغادرة المكان. قرأت عبارة الصندوق بمشقة، لأنها تعلمت نزق الجسد أكثر من تعلمها أيّ لغة أو رطانة، وكان قاموسها اليومي شفاهياً بحتاً، قاموس الحديث العادي، إضافة للجزء الآثم من الحوار الذي يساعدها في الرزق، وقد تركت الريف منذ عام، وتتجول في كينشاسا بحثاً عن السيّاح، ترافقهم إلى أي غاية يريدونها، غالية حيناً، ورخيصة رخص التراب في معظم الأحوال.

لم يعجبها لويس نوا كرجل يستوجب الإعجاب بوجهه وجسده، واحتمال وجود ثروة مخبّأة في جيبه، لكنه كان الغريب الوحيد المتاح حالياً، والغرباء مهما تكسّرت مجاذيفهم، وخلت جيوبهم من المال، لا بد يملكون شيئاً ادخروه للسفر والعودة، والإقامة في البلد الذي يزورونه.

في تلك اللحظات، وهو يرى الفتاة تلتصق بإغراء، بظهر الضحية المرتقبة، ابتسم إيبولا المحلق في المكان، وهو يراها تقرّب وجهها من الوجه المفصد بتلك الدوائر المقيتة، ضحك، وكاد يطلق قهقهة عالية، حين رأى الغريب يغادر برفقة الفتاة التي سكن دمها البارحة فقط، تابعهما حتى خرجا من شارع جمادي، وترنّحا في حارات قذرة، وأزقة شبه مهجورة، ودخلا بيتاً من طابق سفلي، يعجّ بالصراخ والضحكات غير البريئة، ويخرج منه بين حين وآخر، سكارى بالكاد يقفون على أقدامهم.

انتهى الأمر إذاً، وأصبح لويس نوا، ساكن أنزارا الذي يزور الكونغو في رحلة حزن، ذلك الجسر الذي سيعبر عليه إيبولا إلى بلاد أخرى.

2

قبل توجهه إلى كينشاسا بأربعة أيام فقط، اختير لويس نوا رجل العام في أنزارا.

لم يكن اختياراً حكومياً، توقع عليه السلطة البلدية، ويمنح بموجبه وساماً أو شهادة تقدير بخط متعرّج، تُعلق على حائط في البيت، ولا شعبياً تسانده الجماهير الغفيرة في الشوارع، وتصفق له، ولم تكن هناك أصلاً مكرمة اسمها رجل العام، توزّع هكذا ببساطة في أنزارا. إنهم مجموعة من زملائه العمّال في مصنع الألبسة القطنية، اعتادوا تكريم أنفسهم سنوياً بأقل قدر من الفخامة، وأقاموا احتفال رجل العام، نكايةً باحتفال يوم المرأة العالمي الرسمي، الذي تنقلب فيه النساء إلى عقارب وحيّات، يتمرّدن على خدمة البيوت، وإرضاع الصغار، وتهيئة فراش الزوجية الحميم، وينتشرن في الشوارع والأزقة، حاملات الملصقات الدعائية، والنشرات المكتوبة حتى بلغات القبائل المحلية، يوزّعنها في كل بيت. وضع عمال مصنع الألبسة أسماءهم جميعها في لائحة طويلة، من المؤكد أن السنوات لن تسعها في أي حال من الأحوال.

في ذلك اليوم، طلبوا من لويس نوا أن يتأنق بقدر استطاعته،

يستحم ويتعطر، يقص شعره الخشن، عند منقو نقوشوا الحلاق، ولا يسرف في الشجار مع امرأته تينا، لأنهم يحتجاون إلى صوته بالقطع، في خطبة أو وصلة غنائية، أو حتى شجار أثناء الاحتفال، يندلع لأي سبب من الأسباب. وكانت مسألة شجاره العائلي اليومي، الذي تحتل مواضيع شح المصروفات، والخيانة الزوجية، أغلب أسبابه، معروفة، ومثبتة لدى كل الزملاء تقريباً.

كان أنامي أوقيانو، وهو ستيني، من أصل كيني، ويقيم في أنزارا منذ سنوات بعيدة، وغير متزوج، و لم ينو الزواج قط، هو من اخترع تكريم رجل العام ذلك، ومن ينظمه سنوياً، ومن يفرض على لجنة الاختيار التي شكلها من عمال متقاعدين في منشآت شتى، ونساء عجائز لا علاقة لهن بأي شيء، آراءه الخاصة العصبية إلى أقصى حد، والتي لم يصبح بسببها رئيس عمال في مصنع الألبسة قط بالرغم من استحقاقه لتلك الوظيفة. و لم يحس أبداً، أن اختياره لنفسه، رجل العام، في أول تكريم أقامه منذ خمسة أعوام، ترفاً ليس من المفترض أن يحدث.

هذه المرة، كان الأمر مختلفاً تماماً، فقد أصر نوا، بطريقة غريبة، على أن يُكرَّم في ساحة عامة من ساحات المدينة، خلافاً للركن المهجور في مصنع الألبسة الذي سمح صاحب المصنع، جيمس رياك، بأن تقام فيه حفلات رجل العام، طوال السنوات الماضية، برغم عدم اعترافه بذلك الطقس. أصر على أن يحضر تكريمه، محافظ المدينة شخصياً، و لم يكن في الحقيقة ثمة محافظ في ذلك الوقت، ولكن مجرد ضابط إداري بسيط من سكان المنطقة، يتولى الشؤون البلدية، ويطلقون عليه

المحافظ، تجاوزاً. لم يتأنق كفاية كما طلب منه، بسبب عدم وجود متطلبات الأناقة ولا مزاجها، في بيته. هو سرواله البني وقميصه الأخضر المشجر، اللذان اعتاد ارتداءهما على نحو شبه يومي، وشال قطن أزرق اللون، يلفه حول رقبته باستمرار، وإن كان قد ذهب إلى منقو نقوشوا، وقص شعره، وأضاف الحلاق من عنده لمسة اعتبرها جمالية ومميزة، حين استخدم أحد أمشاط الحديد، ليفرق الشعر في الوسط، وبخيط رقيق، مرره تباعاً على وجهه، أزال كثيراً من الأوساخ وأكياس الدهن الصغيرة، و لم يطلب أجراً باعتبار تلك الخدمة مهداة من عنده للمحتفى به. وفي الحفل الذي انتزعت له ساحة كان يستخدمها المتمرّدون على السلطة المركزية قديماً للثرثرة، ودفن تباريح الحرب المهلكة، والتدرّب على الخطب الحماسية الخاصة بفوائد انفصال الجنوب عن الشمال، قدّمه الكيني أوقيانو، ليلقي كلمته، ويشكر كل من ساهم في تكريمه، و لم يلق كلمة على الإطلاق، تنحنح قليلاً، حرّك عينيه يميناً ويساراً وانسحب، وبالرغم من ذلك، اعتبر ما فعله كلمة صفق لها الجميع.

أهم ما حدث في تكريم رجل العام ذلك، هو أن لويس نوا منح وضعاً استثنائياً تلقى بفضله كثيراً من المصافحات الهامة من المسؤول المحلي، وغيره من سلاطين القبائل، الذين حضروا الحفل، تلقى عدداً من قوارير العطور الرخيصة، ومضادات الصراصير والفئران، وزجاجة خمر محلي قوي المفعول من ماركة «الجن الأزرق»، ومنح شيئاً من المال الذي كان حصيلة تبرّعات جمعت من زملائه، وأصبح بإمكانه أن يسافر قريباً إلى الكونغو، ليرقد يومين ملعونين في أحضان ألين،

أو إلينا كما كان يسمّيها، وهو ما لم يحدث أبداً، لأن فاجعة موتها وصلته، وهو يستعد للسفر، وسافر بذلك الحزن الكبير الذي بكى به على قبرها.

لم يعد نوا إلى أنزارا في ذلك اليوم الذي دخل فيه إيبولا دمه، كما كان يتوقع شخصياً، وتتوقع امرأته المهجورة عاطفياً، وصاحب مصنع الألبسة الذي أدرجه في وردية عمل في اليوم التالي مباشرة. كان تحت ظل المتعة الشوارعية الجديدة، في البيت الطافح بالفجور والضحكات غير البريئة، وتحت رحمة شيطانين، أحدهما كانيني التي تميته متعة، وإيبولا الذي لم يسكن دمه فقط، لكنه تناسل إلى ملايين النسخ التي بدأت تعمل بجدارة، وإن كان ثمة قلق، أن لا يعود الغريب إلى دياره، وينزف أحشاءه حيث يفجر، وتتجمّد قضية الهجرة لدى القاتل الرهيب، ريثما يعثر على ضحية جديدة.

في اليوم الثالث، ومع بدايات الصباح غير المنعشة، في طقس حار ولزج، سلمته كانيني ورقة مكتوبة بفرنسية في غاية الركاكة، عليها ديون متراكمة عند بقال في الحيّ، وجزّار وبائع خمر، وسائق عربة للأجرة، وصعلوك معروف اسمه ليو، كان يدّعي حراسة بنات الهوى المتسكعات في البؤس، لقاء أجر شهري، و لم يحرس طوال تاريخه في هذه المهنة أي امرأة. شرحت كانيني للويس نوا بتأنٍّ شديد، وبإغراء مستهلك، حاجتها للخلاص من محتويات تلك الورقة، في أسرع وقت ممكن، حتى تتفرغ لإنعاشه أكثر، وفوجئ ساكن أنزارا الذي لم يعد حزيناً، ولا دامع العينين، أنه لا يستطيع حتى أن يريحها من أعباء سطر واحد في الورقة، بسبب شح الإمكانيات. إمكانيات جيبه الفقير،

غير المعد جيداً لمثل هذا المهرجان، وإمكانيات رجل كهل، ليس من المفترض أن يكون طرفاً في نزوات بهذا الحجم. طلب منها أن تمنحه بضع دقائق، حتى يعود بالمال من صديق يسكن بالجوار، وصدقته، لا بسبب لهجته الجدية وهو يخاطبها، ولا بسبب ثقتها المفرطة بأنها امتلكت قلبه وعرق إبطيه، ولكن لأن لا خيار آخر لديها، سوى أن تصدّقه. منحته وقتاً غير محدد، وساعدته على الوقوف وارتداء ملابسه، ورافقته حتى باب البيت، وعادت تنتظر.

حين جلس نوا في حافلة العودة إلى بلاده، وتأكد من أن جواز سفره موجود في جيبه، وأن في ذات الجيب عدة فرنكات ربما يمنحها الحارس حدود سخيف، موجودة أيضاً، تذكر فجأة أن ثمة إعلانات كانت تملأ شوارع أنزارا، عن زيارة عازف غيتار كونغولي أعمى، سيحيي حفلاً كبيراً في الاستاد الرياضي الوحيد، وحين تلفت في الحافلة، شاهد روادي مونتي خلفه مباشرة، يثرثر مع الفتاة التي شاهدها معه عند باب المقبرة، وحين أكمل دهشته وعاد إلى وضعه الطبيعي، مستقيماً بوجهه إلى الأمام، سمع عازف الغيتار يردّد: معاً إلى أنزارا أيها الحزين، صاحب الشال الأزرق، يا للمصادفة الغريبة...

وفي الواقع، إن هذه النقطة بالذات، نقطة الحزن والشال الأزرق، كانت معتمة في فطنة العازف، لأن لويس نوا، لم يكن حزيناً هذه المرة، إضافة إلى أنه ترك شاله الأزرق عند كانيني. لم ينسه، و لم تسرقه الفتاة، هو وحده الذي تركه.

3

لم يكن مصادفة أبداً، أن تحدث تلك العلاقة الحميمة بين لويس نوا، وزوجته تينا أزاقوري، بعد عودته من كينشاسا مباشرة، وبعد أكثر من عامين من الهجر العاطفي المتقن، من كلا الطرفين. تينا نفسها، أرادت تلك العلاقة، واستعدت لها بقوة، وأرادها لويس نوا، الذي لم يتنفض بعد من طعم كانيني، وليالي البيت الكونغولي المستعر، ولا من فائض الهرمونات التي ضج بها جسده، وقرر في لحظة ارتباك كبيرة ومهينة، أن يسعى لاسترضاء تينا بأي شكل، ويعلم يقيناً، أنها لا تنتظر عودته، كما تنتظر النساء عودة أزواجهن المسافرين، في أي حال من الأحوال.

كانت تينا في السابعة والثلاثين، ليست جميلة أيضاً، لكن وقعها على العيون، كان ألطف كثيراً من وقع زوجها نوا، وبما قدر لها أن تدخره من مهنة بيع الماء في الشوارع، التي قضت فيها سنوات بلا حصر، استطاعت أن تتأنق إلى حد ما، تزيّن شعرها بالأشرطة والخرز، والفواريص اللماعة، وتضع قليلاً من المرطبات والمساحيق على وجهها، وأيضاً تكحل عينيها متى ما أرادت أن تمنح العينين، بعداً آخر.

استطاعت أن تسهم في تأسيس بيتها، بما يجعله مناسباً ليعيش فيه أحد، برغم فقره. لم تحب نوا حقيقة، ولم تفكر أن تحبه في أي

يوم من الأيام، حتى حين كان الحب في أنزارا، مرادفاً لحياة الفتيات الجميلات وغير الجميلات في نفس الوقت، أن يعشن أكثر قصص الحب غرابة وهمجية، يعشقن صورة لمتمرد أرعن مطلوب للعدالة، وزعتها السلطات الحكومية في الشوارع، يعشقن كلب صيد سريعاً من فصيلة السلوقي، أو «الأزاواخ»، يتقافز في الغابات، ويأتي بالغنائم المجيدة، ويعشقن حتى أصوات الدمى المتحركة التي يصادف أن تقدّم لها عروض خاصة، من فرق زائرة إلى أنزارا، وبعضهن، من اللائي لم يبلغن سن النضج بعد، تزوجن في الخيال، من «الثعلب الماكر»، الذي كانت قصصه في خداع الأرانب، تأتي مصوّرة في كتب الأطفال، من الدول المجاورة التي تملك إمكانية أن تعد قصصاً لمتعة الأطفال بعدد من اللهجات الأفريقية. لم تحبه حقيقة، وتزوجته حين كان خياراً وحيداً بائساً، لم تتوقع أبداً، أن تعقبه خيارات أخرى، ذلك أنها اقتربت من الثلاثين، وأصبح في حكم المؤكد، أنها ستظل بلا زواج حتى تموت.

في عصر ذلك اليوم البعيد، ومنذ أكثر من سبع سنوات، اعترضها لويس نوا فجأة. كان ما يزال شاباً في نظر المجتمع، لكن شبابه مخنوق بتلك الخلقة غير المريحة، وفصدات جبهته التي كانت أكثر غطرسة من الآن، لم يكن يشبه المحاربين العظماء برغم الطول والعرض، وضخامة الكتفين، لأن المحاربين العظماء، لا يتدنّون للنساء، حتى لو ماتوا فيهن رغبة. لا يشبه الصيادين، لأن للصيادين نبرة صوت باهرة، ومشيات تشبه مشيات الغزلان التي يطاردونها في الغابات، ويأتون بلحمها، غالياً. باختصار شديد، كان يشبه نفسه فقط، وحين تفكر تينا في أن

شخصاً ما يشبه نفسه، تستغرب بشدة، تتساءل:

هل هناك من لا يشبه نفسه على هذه الأرض؟

كانت برفقة أمها في ذلك اليوم، قادمتين من بئر بعيد، تضعان صفائح الماء أمامهما، وتجلسان على مقعدين منخفضين من الخشب المنسوج بالحبال، ويأتي بين حين وآخر، شخص عطشان حقيقة، أو يتوهم العطش، لتغرف إحداهما، وتسقيه لقاء دراهم قليلة، من إناء من الألومينيوم، مثقوب في رأسه، وموصول بخيط طويل إلى صفيحة الماء، لضمان عدم سرقته، وإمكان أن يفر به أحد بعيداً. الحقيقة أن مهنة بيع الماء في الشوارع، ليست مهنة مجيدة على الإطلاق، هناك مهن كثيرة أرفع منها، مهن تشبهها وأخرى أحط منها، ورغم ذلك كانتا تعشقانها وتعملان فيها بجد. القدر وحده من يوزع المهن، ولو سئلت تينا أو أمها ذلك السؤال التقليدي: لو لم تكوني بائعة للماء في الشوارع، ماذا كنت تفضلين أن تكوني؟ لردت أو ردت أمها، أو الاثنتان: بائعة ماء في الشوارع.

المشكلة ليست في الحر والبرد، والبيوت أيضاً حارة صيفاً وباردة في الشتاء، ليست في مطر خط الاستواء المستمر، والبيوت ببنائها العشوائي، لا تحبس المطر أبداً. ولكن في الشارع نفسه، في المناخ المزري الذي يغري بالتحرّش بامرأتين، وفي التواطؤ الإنساني الذي يحدث معظم الأحيان، أن لا يستجيب أحد لاستغاثة تصدر أمامه وعلى مرأى ومسمع منه.

وقف لويس نوا، الشاب الذي ترك الخدمة آنذاك، عند أسرة فرنسية تقيم في أنزارا، والتحق بمصنع الألبسة الجاهزة الذي افتُتح منذ أسبوعين

فقط، أمام المرأتين، لم يكن عطشان، ولا يتوهم العطش، فقط أقسم داخل نفسه، بلا ضرورة لذلك القسم، أن يتزوج اليوم، من أول فتاة يراها مبتسمة، وكانت تينا مبتسمة في تلك اللحظة، فقد تذكرت أنها ترتدي سروال أمها المثقوب في عشر جهات، شدّت قميصها جيداً إلى جسدها، وابتسمت.

قال نوا بهدوء شديد، وبلا أي رنة ضعف أو استهزاء، مخاطباً تينا أزاقوري:

– لقد قررت أن أتزوجك اليوم، يا فتاة أياً كان اسمك، أو قبيلتك، لديّ عشة صغيرة في الجوار، وبقرتان لا بأس بهما، ووظيفة حديثة في مصنع، ويمكن جداً أن أنجب منك أولاداً... هل يرضيك هذا؟

قالت: نعم.

وأيضاً بنفس الهدوء الذي سمعت به كلماته:

أتزوجك اليوم... هيا.

في مساء نفس ذلك اليوم، تسلمت عائلة تينا المكوّنة من أمها، وخالها ماجوك، الراقص في فرقة أنزارا للفنون الشعبية، وروح أبيها التي يعتقدون أنها ما زالت ترفرف في البيت، وتتلقى الفرح والحزن، ويمكن أن تتحاوم في الجوار، تعزي في ميت أو ترقص في عرس، تسلموا بقرتي لويس، ودراهمه القليلة، وتوافه أخرى، سُمّيت مهراً بصعوبة، وأقاموا طقس عرس متواضع للغاية، رقص فيه الخال ماجوك وعدد من أفراد الفرقة التي يعمل فيها، وغني فيه للأسف الشديد، الكيني أنامي أوقيانو، الذي لا يملك حتى صوت نائح في الجنائز، و لم يغنّ في حياته سوى مرتين فقط، تلك المرة، ومرة أخرى، حين اخترع

تكريم رجل العام، واختار نفسه، وكرّمها بعد ذلك بثلاث سنوات.

كانت حياة عادية، تلك التي عاشها الزوجان، لم تتوقف هي عن بيع الماء في الشوارع، حتى أثناء فترة شهر العسل، و لم يتوقف هو عن محاولة خيانتها، بعد فترة وجيزة من الزواج، حتى خانها بالفعل، حين عثر على تلك الفتاة ألين، خادمة غرف غير متطلعة، في نزل حقير يغشاه الزوار الفقراء في كينشاسا، لم تنظر إلى وجهه كثيراً، و لم تسأل عن ماضٍ أو حاضر، وانساقت له. وبالرغم من أن تينا لم تر تلك العشيقة أبداً، ولا تخيّلت أنها ستراها في يوم من الأيام، إلا أنها كانت تعرفها جيداً، تعرف اسمها، وتقاطيع وجهها، وقياس نعليها، وعدد اللقم التي تملأ معدتها في كل وجبة. تعرف كيف تستقبل الزوج المخادع، حين يأتيها محمّلاً بالرغبة والطعام الجيد، وكيف تودعه حين يرحل، وما لون الملاءة التي تفرشها على سرير الخداع في كل مرة، ونوع العطر الذي تتعطره، وعرفت بموتها على يد ذلك الساحر الذي وزع الموت في قرى الكونغو ومدنها، لم تكن للأسرار قدسية كبيرة في تلك المناطق، كان هناك من يعرفها، من يغتصبها، ومن يوصلها حتى أبواب الذين تهمهم. الشيء الوحيد الذي لم تسمع به تينا، هو إيبولا القاتل، ولو كانت قد سمعت به، لما راودتها تلك الأفكار التي تراودها الآن، ولبقيت زوجة مهجورة إلى الأبد.

كان موت الكونغولية إلينا، بمثابة كوة انفتحت لها في عتمة علاقتها بزوجها، ستحاول أن تستغلها إلى أبعد حد. تحاول الولوج عبرها وتحيي تلك العلاقة. فكرت أن لويس نوا خائن بالفعل، والخائن في عرف أي زوجة، حتى لو لم تكن تحبه، وصدمت به، يظل خائناً

حتى النهاية، لكنها ستحاول. وفي جلسة مغلقة ضمّتها، وجارة خدعت أيضاً، ومات زوجها وهو غارق في الخديعة، تمت تعرية نوا ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، أشارت الجارة إلى طفولته البائسة في عشش الكرتون، أحقر حيّ سكني في المدينة، وأمه التي كانت تلقيه في المزابل حتى يأكل، وإخوته الذين كانوا لصوصاً بلا حياء، يسرقون حتى ثياب الغسيل من أي حبل يجدونه، وهي أشياء لم تكن تعرفها تينا، وتردّدت كثيراً في تقبلها، قبل أن تخضع للأمر الواقع، وتهز رأسها موافقة، والحقيقة أن الجارة نفسها لم تكن تعرف تلك الأشياء عن نوا، لكنها تخيّلتها من دون أيّ وجه حق. تحدثت الجارة عن عمره الذي اكتهل كثيراً، وعن خلقته التي زادها العمر بؤساً، بشيء من الحرج، وبعد عدة أسئلة وأجوبة من تينا عن أشياء لا علاقة لها بالخيانة الزوجية، اقترحت أن تبدأ تينا عمراً جديداً، تحاول فيه أن ترزق بطفل. وتوقعت أن يمر زمن طويل، قبل أن يعثر رجل بمواصفات نوا، على امرأة جديدة، ويكون ساعتها قد انتهى كرجل، إلى الأبد. تلك النظرية لم تكن جادة، وليست قائمة على أيّ أسس علمية، خاصة أن تينا لم تكن تعرف حجم رجولة زوجها الحالية، إن كانت كما هي قبل عامين، أو ثلاثة، أم اضمحلت، أو حتى ذهبت إلى الأبد. تسمع عن جاذبية العمر المتقدم عند بعض الرجال، مهما كانت ظروفهم، ولا تستطيع أن تجزم بصحتها أو عدم صحتها. لكن نظرية الجارة أعجبتها في النهاية، وقررت أن تنفذ.

جربت أولاً أن تستخدم العواطف، من أجل أن تصبح حارة ملتهبة عند عودته، ونجحت إلى حد ما في العطف على قطة مشردة، وكلب

ضال، واشترت أشياء لا ضرورة لها إطلاقاً، مثل أقلام الرصاص، وطواقي السعف، والمناديل المصنوعة من البوليستر، من طفلة يتيمة كانت تعرضها في الشوارع، وهي تبكي.

جربت دموع الفرح التي نسيتها منذ مدة، وبكت بشدة، من حادث روتيني، وهي أنها تعشت في ذلك اليوم، في بيت أمها، ولطالما تعشت من قبل مئات المرات، بلا دموع فرح.

لم تكن ثمة طريقة تتذكر بها كيف تلتقي زوجاً عائداً من سفر، وكيف تتكهن بردة فعله، ومن ثم فإن احتضان أعمدة البيت الطينية، أو أشجار الباباي المشتتة في الشوارع، سيكون عبثياً وبلا أي جدوى، لأنها بلا روح.

انتهت من تحضير عدة أصناف غذائية يحبها، و لم تطبخها له منذ عدة أعوام، أعادت للسرير الخشبي الفقير، ملاءته الحمراء التي فرشتها وهي عذراء في ليلة زفافها، ومن سوق المدينة الممتلئ بالعطارين من عرب الشمال، الذين يخنقون أنفاس الجنوب منذ أجيال، اشترت ما يجعل الجسد الأنثوي، ليناً وطرياً، ما يجعل شيئاً شبيهاً بالعذرية، يعود من جديد، وما يجعل جو البيت مهما كان تعساً وفقيراً، وقليل الإمكانيات، جواً حميماً إلى أقصى حد. وحين انتهت من كل ذلك، طلبت من أمها أن تمنحها إجازة قصيرة من مهنة بيع الماء في الشوارع، سمّتها: إجازة استعادة لويس نوا، و لم تنس برغم ذلك، أن تفكر في صدّ محتمل، فأضمرت في سرها اسماً آخر: إجازة إلغاء لويس نوا إلى الأبد، حتى إذا ما حدث الصد والنفور، وعوملت بجلافة، استخدمته.

لم يعد نوا في يوم الانتظار الأول ولا الثاني، فجلست في اليوم الثالث، وقد ازدادت تصميماً، على أن تقتله حميمية، لو عاد في ذلك اليوم.

من ناحيته، كان لويس نوا متعاوناً مع أفكارها الإيجابية، من دون أن يدري، إلى أقصى حد، وكأنها كانت أفكاره هو، وفي الوقت الذي كانت تيسّر فيه كل السبل لملاقاته، بما في ذلك إزالة عدد من الحجارة الصلدة التي كانت قد رصّتها في مدخل البيت، على أمل أن يتعثر بها ذات يوم، ويرتج رأسه، كان نوا قد تذكر ملاءة العذرية الحمراء، وعطور العرس الملتهبة التي شمّها في ذلك اليوم البعيد، وكماليات عديدة، بعضها صادفه بالفعل في بداية حياته، وبعضها تخيل أنه صادفه، وفي الحافلة التي تقترب من الحدود بعيداً عن الرقابة الطبية، وقوانين الحجر الصحي المتعارف عليها بين الدول، لم يتحمس كثيراً لثرثرة عازف الغيتار الأعمى، روادي مونتي، الذي كان يحلم بصوت مرتفع، ويحصي بلا تردد ولا خوف من الخسارة المحتملة، إيراد الحفل الكبير الذي سيحييه في أنزارا، كانت أكثر جملة ملّها نوا، وتمنى لو كانت بعوضة ليقتلها ويستريح، تلك التي لم يتوقف العازف عن إطلاقها:

– صف لي جمهور مدينتك من الجيل الجديد، أيها الحزين... منذ سنوات لم أزر بلادك.

في البداية أجابه نوا باحترام شديد، حدّثه عن ميوله الشخصية نافياً بشدة أن يكون من عشاق الموسيقى الحديثة، أو أي موسيقى أخرى، وأن ما يعرفه عن الأجيال الجديدة صفر، لأنه تزوج متأخراً، و لم يلد عيالاً ينخرطون في أي جيل، ليعرف شيئاً عن الميول، والراديو الصغير

الذي يملكه، خصّصه لسماع الأخبار، وإن كان قد تركها هي أيضاً، لأن أخبار العالم لا تسر.

بدا أن عازف الغيتار قد اقتنع، لأنه سكت، وفي الواقع لم يقتنع، هي زفرة حزن طويلة، أسكتته وعاد ليردّد الجملة مجدداً:

– صف لي أيّ جيل تعرفه، أيها الحزين... صف لي متذوّقي الفن في بلادك.

غيّر نوا مكان جلوسه، واتجه إلى مؤخرة الحافلة المكتظة بالمسافرين، ليواصل السفر واقفاً، ويصطاد تخيّلات جديدة في شأن علاقته بتينا، وفوجئ بأن العازف قد نهض بدوره، توكأ على فتاته المرافقة، والتصق بجانبه، ليواصل مثله السفر واقفاً:

– قل لي... هل ستنفد تذاكر حفلي، يا ساكن أنزارا؟

أراد نوا أن يخبره باسمه، حتى يقلع عن لقب الحزين، أو ساكن أنزارا، أسخف لقبين يلحقان به، وطرد الفكرة من ذهنه، كان إخباره بالاسم، يعني أنه يستمتع بمرافقته، و لم يكن مستمتعاً على الإطلاق.

حين وصلت الحافلة إلى نقطة الحدود، وبدأ المسافرون إجراءات إذلالهم من قبل الحراس وموظفي الجمارك، من نزع للقمصان والسراويل، وتفتيش الشعر، والجيب الجسدي الواقع في المسافة بين الثديين عند النساء، لاحظ نوا أن روادي مونتي، هو الوحيد الذي عبر بلا إذلال، بينما أدخلت مرافقته إلى غرفة صغيرة لتفتيش جيب نهديها كما يبدو، ومن سوء الحظ أنه لم ينتبه إلى تلك المعاملة الرفيعة التي حظي بها، عاد إلى ترديد جملته، بمجرد أن تحركت الحافلة، متوغلة في المدينة.

لم يذهب نوا إلى بيته مباشرة، كان الليل قد استلقى داكناً على ظهر المدينة، أنارت كهرباء المدن البعيدة، شحيحة الضوء، ما استطاعت إنارته، وبدت الشوارع ميتة وشبه خالية من الأرواح التي تنعشها. ذهب العازف روادي بصحبة منظمي حفله الذين استقبلوه بعربة جيب صغيرة، كانوا ثلاثة متحمسين بشدة، يتحدثون الفرنسية، والكونغولية والسواحلية، لكن الفرنسية هي لغتهم المفضّلة، بحكم نشأتهم في باريس، كانوا يلقون بلقم الأمل دسمة في سمع العازف الذي اختنق فرحاً، أخرج غيتاره من جرابه الجلدي، وزرع أغنية راقصة في موقف الحافلات، ومضى من دون أن يعترض طريق أحد.

في السوق الذي أصبح شبه مقفر، التقى نوا بصاحبه الكيني أنامي أوقيانو، كان حيوياً كالعادة، لكنه بدا منزعجاً من غياب نوا غير المبرّر، وأسمعه جملة حادة، من تلك التي يردّدها أصحاب العمل في حق عامل غير منضبط، قال له: تعوّد عليها من الآن، حتى إذا ما سمعتها غداً صباحاً من جيمس رياك، في المصنع، اعتبرتها مستهلكة، ولا تصدم. ثم صافحه وذهب. الشيء الذي لا يعرفه العاملان الصديقان، أن إيبولا الرهيب كان يقهقه في تلك اللحظة، لأن وجهيهما كانا قريبين من بعضهما، وأن نوا عطس بعمق في تلك اللحظة، ففرت ملايين النسخ من القاتل، إلى جسد الكيني أوقيانو.

تسكّع نوا قليلاً في السوق شبه المهجور، اشترى عقداً رخيصاً من الخرز الأحمر، هدية لتينا التي لم يهد لها شيئاً منذ زمن، جلس قليلاً على مقهى، وهو متوتر، نهض مترنحاً، خرج من السوق، وعرج على خمارة معروفة، اشترى نصف زجاجة عرق قوي، وقبلته صاحبة

الخمارة في فمه، وهي سكرانة، وسط قهقهات إيبولا، وحين وصل إلى البيت و لم يعثر على الحجارة الصلدة التي طالما أعاقت دخوله، وكادت تسقطه في ليال عديدة، ابتسم، واتسعت ابتسامته وابتسامة إيبولا أيضاً حين عثر في داخل البيت، على كل المشهيات التي فكر فيها، والتي لم يفكر.

4

كانت إعلانات حفل العازف الأعمى المشتتة في الشوارع، قد تعرّضت لاعتداءات شتى، إما من أطفال اعتادوا اللعب بكل شيء، حتى سراويل آبائهم، وحمالات صدور أمهاتهم، أو كبار يهوون نزع الملصقات من الحوائط، واستبدالها بملصقات أخرى، تحوي رسوماً عارية، ونكاتاً خليعة، وأشياء أشبه بذلك، وفي بعض الأحيان، يتركون الملصقات كما هي، لكنهم يعبثون بمحتوياتها، وقد شاهد نوا في ذلك الصباح الذي حوله المزاج المنتشي، برغم الحرارة القاسية، إلى صباح وردي ومنعش، وجه العازف في كثير من الشوارع، وقد نبتت له لحية بيضاء، أو طالت أذناه بشكل بذيء، أو استبدلت نظرات عينيه الهائمة، بنظرات كبيرة وفضولية. وفي ملصق بالحجم الطبيعي، بالقرب من مصنع الألبسة القطنية الذي يعمل فيه، يبدو أن عاملاً موهوباً اجتهد طوال الليل، ليستبدل ملابس روادي الزرقاء الأنيقة، بأخرى رخيصة جداً من إنتاج المصنع نفسه. كان نوا يحس بإعياء طفيف، ثمة صداع بالرأس والعينين، ثمة رعشة خفيفة، ورشح بالأنف، وألم في الركبتين، ولاحظ وجود بقع حمراء على إحدى يديه، وتأكد له أن كل ذلك، من مضاعفات المتعة التي ظل يتداولها

عدة أيام، بين جسد كانيني الجائع المحترف، وجسد تينا الذي ارتد صبياً بعد أكثر من عامين، من الخمول. كان مستغرباً بحق، ويفكر في شيطنة النساء، وفي كيفية استعادته لحياته الأسرية بلا أي مجهود يذكر، و لم يكن يظن أنه سيستعيدها أبداً، حتى عقد الخرز الأحمر الذي اشتراه، لم تكن ثمة ضرورة لشرائه، وقد نبّهته تينا في آخر الليل إلى ثقل وزنه، وأنه قد زاد بصورة مجرمة، لم تنتبه إليها قبلاً، لكنها برغم ذلك، كانت منتعشة، وتحترم عودته جداً، لدرجة أنها تفكر أن تنجب طفلاً، يضيف جديداً إلى ركود البيت.

تنجب طفلاً؟

ضحك نوا في سره، وضحك إيبولا الذي عبر سلساً إلى جسد الزوجة المجهز للغزو بمئة حيلة نسائية، عدة أيام فقط، وينتهي كل شيء، وإلى أن تكتشف سلطات هذه المنطقة المحرومة من سرعة البديهة، بحكم بعدها وبدائيتها، وتسلط عادات الجهل على مجتمعها، يكون القاتل الرهيب قد قضى على ثلث السكان، بلا أي مقاومة تذكر.

يفكر نوا في مسألة الطفل التي لم تحدث أثناء سنوات الخصب الأولى، ويفكر إيبولا، أنها لن تحدث أبداً، حتى لو كان ثمة خصب موجود في عروق الرجل أو مبيضي المرأة.

الأفكار الأخرى التي راودت نوا، واعتبرها هامشية للغاية، هي تبريراته التي يجب أن يبرزها أمام صاحب العمل الفظ في شأن غيابه، يعرف ويعرف جميع العاملين في المصنع، وربما ربع المدينة أو ثلثها، أن جيمس رياك، كان من متمردي المنطقة الخطرين، قبل أن يتصالح مع السلطة، برغم أنه يحمل شهادة عليا في هندسة النسيج من جامعة

أوغندية، يحتفظون في أذهانهم بحكايات كثيرة، بعضها حقيقي صرف مثل قدرته الفذة على التخفي والتصعلك في الغابات المتشابكة، تصعلكه في حديقة آمنة، وشمه لخيانة الزملاء في التمرّد بمجرد أن يقفوا أمامه، وبعضها مخترع، مثل امتلاكه حيّة من فصيلة الكوبرا، يمكن أن تبتلع شخصاً بالغاً، بكل سهولة، أو شربه كوباً من الدم، قبل أن ينام في كل ليلة، وبالرغم من أن مكافآته الشهرية التي يمنحها لعمال مصنعه، كانت شحيحة للغاية، وتعد أقرب لصدقات التسوّل منها إلى مكافآت العمل، إلا أن الجميع كانوا متمسكين بالعمل في مصنعه، وبعيدين تماماً عن خرق قوانينه، بسبب البطالة التي يمكن أن تنالهم جميعاً لو تمردوا، ولطالما لوّح بمناسبة وبغير مناسبة، إلى آلاف العمّال المهرة في عديد من الدول المجاورة، الذين ينتظرون إشارة فقط، ليتركوا أوطانهم، ويتسلموا العمل عنده، وطوال سنوات عمل المصنع السبع، لم يحدث أيّ ارتباك، يمكن تصنيفه إضراباً أو تمرداً. كان المتبطلون يتزاحمون على وظائفه القليلة، والآباء يسرّبون أبناءهم من فرص التعليم القليلة المتوفرة، تحت رعاية القساوسة الأوروبيين، وبعض المحليين المجتهدين، ويأتون بهم لجيمس رياك، وكان يوظفهم بكل سرور، متناسياً تلك اللافتة التي كتبها بخط يده، وعلقها على مدخل المصنع، والتي تقول: لا لتوظيف الأطفال. وقد جرّب مرة أن يوظف النساء بأجر أحط كثيراً من أجور عماله الرجال، وفشلت تلك الحبكة غير المألوفة في أنزارا، لأن مجرد وجود امرأة في مستنقع وعر كهذا، مهما كانت درجة استرجالها، كان كفيلاً بشل الإنتاج، لا ازدهاره.

لم يكن هناك ودّ بين صاحب المصنع وعامله لويس نوا، الأمر ليس

شخصياً بحتاً، والود مفقود بين الرجل وعماله كلهم تقريباً، يعتبرهم جوعى، يركعون أمامه، ليأكلوا، ويعتبرونه مستعمراً من جنسهم، أقسى كثيراً من أي استعمار حقيقي.

كانت السادسة تماماً، من ذلك اليوم، السادس من أغسطس عام ١٩٧٦، حين وصل إلى المصنع أخيراً. لم تكن المسافة من بيته بعيدة، و لم تكن في المدينة القاحلة الصغيرة، مسافة تعد بعيدة، حتى للمسنين، ومرضى غضاريف الركبتين، وضعف أعصاب النخاع الشوكي المسيطرة على حركة المشي. لقد اعتاد قطع تلك المسافة بشكل مريح وحيوي، و لم يحس أبداً بحاجته إلى دراجة هوائية أو حمار، أو عاطل مستأجر، يحمله على ظهره، كما يفعل بعض الكسالى، وكان جيمس رياك قد وعد الجميع منذ ستة أعوام، أن يوفر حافلة كبيرة من طراز «تاتا» الهندي، أو «جوقوجوقو» اليوغندي لنقل العمال في كل وردية، لكنه لم يف بوعده أبداً، وظل ذلك الوعد معلقاً في السنوات، غير موفى به، ولا يجرؤ أحد على مجرد التفكير في تذكير صاحب المصنع به.

لم يفاجأ نوا حين وجد رياك أمامه، بجسده الذي يتطابق تماماً مع الأغنية التي صاغتها إحدى البنات، في زمن قديم، ووصفت فيها رجولة أسد محارب، زأر في غابة، ففرت هوام الأرض مرتعبة، بوجهه الذي كأن السلطات الحكومية استلفت تقاسيمه القاسية، حين نحتت تمثالاً اسمه الشر، غرسته في وسط المدينة، أيام التمرّد، وأزيل بعد المصالحة الوطنية الأخيرة، التي لم يكن رياك طرفاً فيها، لأنه صالح وحده منذ سنوات، و لم يفاجأ أيضاً حين اشتعل في وجهه، فقد عثر برغم انشغاله في محنة الشبع العائلي الذي عاد بعد سنوات طويلة

من الجوع، وقتاً كافياً ليتدرب على الجمود، وصد الغضب، وترديد الجملة الحادة التي علمه إياها الكيني أوقيانو، ليلة أمس، حتى أصبحت مستهلكة بالفعل، ولا يمكن أن تصدم أحداً بأي حال من الأحوال، وكانت لحسن الحظ، هي نفسها الجملة التي ردّدها رياك، بلا زيادة ولا نقصان، فقط كان الألم في ركبتيه يشتد، ويحس برغبة عنيفة في القيء:

– لا تسمعني أي أعذار من فضلك يا نوا، واستعد للعودة مرة أخرى خادماً عند الفرنسيين، لأنني قررت فصلك عن العمل.

قد يمسكه من أذنيه، ويجره بالأرض، قد يعلقه من خصيتيه فوق مرجل يغلي، وقد يحوله إلى مقعد ويجلس على ظهره، لكنه لن يفصله عن العمل. هذا مؤكد، ويعرف تماماً أن في عهدته آلة قديمة مستهلكة، انتهت أيام عمرها الافتراضية حتى قبل أن يستوردها رياك من منشئها، وأقلعت الشركة المصنعة عن إنتاج قطع غيار لها، باعتبارها من الجيل المخرف، ووحده نوا استطاع بمجهود غير عادي، أن يصنع لها عمراً جديداً، ومديداً ما دام في الخدمة، ولو فصل بالفعل، فما هي إلا أيام، حتى يمشي رياك في جنازة آلته الميتة. لم يسأل نوا أبداً، من أين تعلم حرفة صيانة الآلات القديمة، وهو مجرد عامل نسيج بلا مؤهل، وخادم سابق عند الفرنسيين، ولو سأله، لما عثر على إجابة، لأن لويس نوا نفسه لا يعرف.

في بداية خصامه الطويل مع تينا، وبعد أن قص شعرها في إحدى الليالي الغاضبة وهي نائمة، لجأت إلى جيمس رياك، طلبت من سعادته أن ينظر إليها بعين الرحمة، لم يفهم المتمرّد السابق، معنى الرحمة التي تقصدها، وعرف أنها زوجة عامله نوا، من دون أن تخبره، لأنه شم

رائحة شبيهة برائحته، تنزّ من جسد الأنثى الواقفة أمامه. لم يستسخف هيئتها الغريبة، وهي صلعاء، على العكس، أحب تلك الهيئة بشدة، ظنها حيلة تفرد جديدة، من حيل المرأة، وتمنى لو أن زوجته قد طبقتها، قبل أن تفر مع سائق شاحنة كيني، ولا تعود مرة أخرى. سألها وهو ما يزال خالي الذهن عن معنى الرحمة، وممتلئاً بفلسفة الغابات التي أخلص لها سنين

– تريدين أن أقتلك بسبب مرض ميؤوس منه، وأريحك من الألم؟

–لا... ردت. ولكن تعاقب زوجي لويس نوا على قصّه شعري وأنا نائمة.

وبالرغم من أن الموضوع أصبح الآن واضحاً، ولا علاقة له بالموضة والحيل النسائية، كان رياك ما يزال منبهراً بذلك الصلع الفاتن في رأيه، قال وهو يرفع يده، يهشّ بها المرأة الباكية، وذبابة مزعجة تتحاوم حوله، في نفس الوقت:

– اذهبي من أمامي يا جاحدة... لقد صنع منك نوا فينوس حقيقية، لا تستحقينها.

بالطبع لم تفهم، و لم يفهم كل من حكت له تلك الجملة بعد ذلك، بمن فيهم أمها، وخالها الراقص ماجوك، وأعضاء فرقته، وعدد كبير من الجارات، من هي فينوس التي لا تستحقها امرأة تعتقد جازمة بأن جمالها قد شوّه.

–الآن اذهب إلى موقعك وأنتج شيئاً، حتى أوقع أمر فصلك.

قال صاحب العمل، واستدار إلى مكتبه، وترنّح نوا الذي أصبح في غاية الإعياء بالفعل، وقد نزّ منه العرق، متجهاً إلى موقعه. كانت الجملة الأخيرة، جديدة تماماً، لم يسمعها من قبل.

5

من المحتمل جداً، أن الساحر الكونغولي الشرير، الذي كان يوزع الموت في كينشاسا وما حولها من القرى والأرياف، قد اقتنصه، وتتبّعه إلى أنزارا، وما هي إلا ساعات قليلة ويموت لاحقاً بإلينا، رفيقة العامين الأخيرين الدافئين، ومئات غيرها، شاهد قبورهم لينة حين بكى على صاحبته، وغرس الزهور البنفسجية ذات الرأس الأسود.

هكذا كان لويس نوا يفكر، وهو مشوّش، وخائف، وضيق الصدر، ومحمول على سواعد زملائه العمال، يحاولون الوصول به إلى مستشفى أنزارا الفقير، وقد أبى رياك أن ينقله بعربته الجيب القوية، لأسباب عدّها وجيهة، وكانت في الحقيقة بعيدة تماماً عن الوجاهة، قال إن عربته ليست إسعافاً حكومياً، لتتلوّث بالجراثيم والدم، وإن المريض ليس من عمال مصنعه، حتى يشفق عليه، لأنه وقع أمر فصله من العمل قبل أن يسقط.

نعم لقد وقع أمر فصله بالفعل، والشيء الذي لم يلحظه نوا حين دخل المصنع في ذلك الصباح، ولم يخبره به الكيني أوقيانو، حين التقاه البارحة في السوق، هو وجود آلة عملاقة داخل صندوق من الخشب، كانت جاهزة لتحل محل الآلة القديمة التي كانت تحميه،

لقد قرّر رياك بناءً على نصائح من موزعي ألبسته الفقيرة في الدول المجاورة، أن يتطوّر لينتج أكثر، ويلحق بالطلب الشديد على ألبسته، الذي زاد بازدياد الفقر في الدنيا، وأوصى بتلك الآلة التي وصلت وتنتظر التدشين.

كانت الحمّى في أعلى درجاتها، رغبة القيء لم تكن رغبة، لكنها قيء حقيقي، فيه مرارة ودم، النزف على أماكن متعدّدة في يديه وقدميه، لا يحتاج إلى تدقيق لرؤيته، ألم الركبتين، شلّ القدرة على المشي، وبين حين وآخر، تأتي رعدة كبيرة، أو يغيب العقل عن الحضور.

اللوحة التي تركض في الشوارع، لم تكن غريبة، ولا لفتت أعين المارة كثيراً، وقد اعتاد الناس في أنزارا، وكثير من مدن الجنوب، مثل تلك اللوحات التي يرسمها المرض، وتلوّنها ريشات الحياة الخشنة، شخص محمول على السواعد في لحظة ضعف، امرأة تلد طفلها، وترضعه في المسافة بين بيتها والمستشفى، وفي إحدى السنوات، حين انتشر مرض الهستيريا بين النساء، وأصاب حتى زوجات سلاطين القبائل وبناتهم، ومعلمات المدرسة الابتدائية، وماشطات الشعر، وكثير من الأوروبيات المقيمات في أنزارا، كان عادياً جداً، أن تشاهد امرأة ترقص في وسط السوق كاشفة عن نهدين ملعونين، أو تشتم شجرة باباي صلبة، بنفس ألفاظ الحماسة التي تشتم بها زوجها في البيت، من المألوف جداً أن تطرق بيت بائعة هوى في الحيّ القذر، وتصفعك عدة مرات أثناء الطقس، باعتبارها في حالة هستيريا، وتشتري كوب ماء من امرأة مثل تينا أو أمها، لتروي العطش في يوم حار، فتدلق البائعة الماء على ثيابك، لأن مرض الهستيريا تمكن منها بشكل مخيف.

الآن اللوحة التي تركض في الشوارع حاملة لويس نوا، لوحة مأساوية بلا شك، ليس لأنها لوحة محتضر ربما يصل وربما لا يصل، ولكن لأن إيبولا الرهيب كان يلوّنها بنزق وشهوة، كل من كان في داخل اللوحة ميت لا محالة.

كان الكيني أوقيانو، الذي أصيب البارحة فقط، ما يزال متوهجاً، يتناسل الفيروس في دمه العجوز بضجة كبيرة، ولا يحس بتلك الضجة، وبصوته العصبي الذي حرمه من منصب رئيس عمّال يستحقه، كان يصيح، يأمر حاملي المريض أن يسرعوا: أسرعوا... أسرعوا...

يردّد باقتناع تام، أنه رجل العام في المدينة، وينبغي إنقاذه بأي طريقة، وكانوا مسرعين بالفعل، لا يلتفتون للهاثهم، ولا يعيرون أدنى اهتمام لتلك الحجارة التي شققت أصابع بعضهم، ومن ملصقات الدعاية المشوّهة بفعل العبث، والموجودة في كل شارع، كان وجه روادي مونتي يتابعهم بتلك النظرات الواسعة، التي لم يكن يملكها حقيقة.

أكيد أن المدينة لم تكن خالية من العربات، هناك عربات بالفعل، عربات حكومية وغير حكومية، يملكها أفراد، لكن لم تكن لدى أي سائق شاهد تلك اللوحة، رغبة حتى في الاستفسار عن معناها.

في داخل بيت لويس نوا، كانت لزوجته أفكار أخرى، بعيدة تماماً عن الفزع والموت والدم، أفكار الخصوبة المتأخرة، احتمالات الحمل من عدمها، وماذا لو أن معجزة حدثت، و لم يضع استثمار الأمس القوي، وانغرست نطفة حقيقية في جسدها، بدلاً عن الأحمال الكاذبة التي انتفخ بها بطنها في سنوات الزواج الأولى، قبل أن يتعرّف

نوا إلى طرق خيانتها، ويهاجر بأشواقه إلى الكونغو؟ وما هي سوى بضعة أشهر، وتبتهج بصراخ طفل، وعدة أعوام ويصبح الطفل رجلها الجديد الذي سترعاه، وتمكنه في المدينة، بعيداً عن مصنع جيمس رياك واستعباده...

كانت قد جربت أدوية الخصوبة التي يتاجر بها العطارون العرب كلها في الماضي، جرّبتها و لم تجد، والآن أخبرتها جارتها التي خططت معها كل شيء، بأن في السوق أدوية أخرى، ظهرت في السنوات الأخيرة، أيام هجرانها، وأجدت لدى نساء كثيرات، فيهن واحدة حملت بثلاثة توائم دفعة واحدة.

ستتمطي قليلاً في ذلك الصباح مقلدة كسل العرائس المنغرسات في ليالي العمر، ستستحم بماء بارد حتى تنتعش، وستستخدم واحدة من صابون اللايف بوي، العديم الرائحة، والمعروف بإزالته لقذارات الدنيا كلها، وفي النهاية ستكحل عينيها، وترطب وجهها، وتذهب للسوق، باحثة عن تلك الأدوية الجديدة. وحين يعود نوا من وردية العمل، مرهقاً، ويشكو من تصلب ساقيه بسبب الوقفة الطويلة، وينزع قميصه الذي في الغالب سيكوّن ملوثاً بالشحم غير القابل للتنظيف، لن ترحمه، ليس بسبب شهوة أو رغبة لا يمكن تأجيلها، ولكن بسبب الطفل الذي إن لم يتكوّن في ليلة البارحة، فلا بد أن يتكوّن اليوم أو غداً، أو في الأيام المقبلة، قبل أن يعود الزوج المخادع إلى محاولات الخيانة، ويعثر على ضائعة أخرى.

إيبولا الذي سكنها في الليل لم يكن غافياً، ولا غير مهتم بها، ويعرف عنه الاهتمام بأدق التفاصيل. هو في دمها وأحشائها ورئتها،

وفي تلك العطسة التي كانت ستكون عادية جداً لولا وجوده، هو في حفرة قضاء الحاجة التي تتوسّط البيت، في الأوعية غير المغسولة، وفي خطواتها التي خرجت بها الآن، متوجهة إلى السوق، ولولا أنها امرأة محترمة، وشبعانة عاطفياً، وفي مهمة محددة، لكان الآن في دم العطار العربي منصور، الذي تحرّش بوجهها وكاد يختلس قبلة، حين دخلت دكانه الخالي من الزبائن، في ذلك الصباح المبكر، لتقترب أكثر من أجولة الدواء البعيدة في عمق المحل. لم تزجر العطار، و لم تصح في وجهه، فقط أبعدته برفق، لقد كان بقاؤها في الشوارع سنوات طويلة بغرض الرزق، قد عرّفها على كل ما يمكن أن يهبط بمعنويات المرأة العاملة، اغتصبت عدة مرات، واكتأبت وتناست ما حدث، وبمرور الوقت، كان عادياً لديها أن تتعرّض لكل الفواحش، وتتفاداها من دون أن ترفع صوتها.

اشترت عدة غرامات من عشبة الملاك، وكف مريم، والماكا، وكانت كلها بترشيح من العطار المنهزم، بوصفها أحدث ما وصل إليه في ذلك المجال، أخبرها أن تخلطها بالليمون في ماء فاتر، وتشرب منها يومياً على الريق مقدار فنجان واحد. و لم يكن ثمة حرج أن يخبرها وثمة لذة برقت في عينيه وكادت تعيده إلى وضع التحرش مرة أخرى، أن تكافح لتربط زوجها إلى السرير، حتى يأتي الدواء ثماره. كان العربي يتحدث لغة قبيلتها المحلية، وهي تجيد اللغة العربية، و لم تكن هناك أي مشكلة في فهم عبارة الربط بالسرير المجازية، فقد قيلت باللغتين.

حين عادت إلى البيت، تحمل غنائمها، وتخبط على بطنها الخالي من الذرية، وتنادي في سرها: يا ماجوك... يا صغيري الجميل... لأنها

افترضت أنه سيكون ولداً، وسمّته ماجوك على اسم خالها الراقص في فرقة أنزارا للفنون الشعبية، قامت من فورها بتصنيع خلطة الدواء، شربت مقدار الفنجان الذي حدّده العربي، بالرغم من أنها أفطرت قبل أن تخرج، وغالطت نفسها كثيراً بأنها تشربه على الريق.

الذي طرق بابها تلك اللحظة، لم تكن جارتها المحرضة، ولا بائعة السلع المتشردة اليتيمة التي اعتادت أن تعطف عليها، في سبيل استعادة العواطف، ولا أمها التي تعرف أنها في إجازة استعادة الزوج المخادع، ومنحتها الإجازة بنفسها. لقد كان الكيني أنامي أوقيانو، وكانت المرة الأولى التي يطرق بابها صباحاً، ومن المفترض أنه يأتي لزوجها، والزوج معه في العمل.

في تلك المواقف غير المعتادة، درج الناس عامة على اتباع طريقة وحيدة للتعبير، وهي الفزع، وهذا ما فعلته المرأة الحالمة، فزعت من دون أن تسأل، وقبل أن يفتح الكيني فمه موضحاً سبباً معقولاً يأتي به في تلك الساعة، كان فزعها قوياً، لدرجة أن أذنيها انغلقتا تماماً في وجه السمع، وانبنى بينها وبين إيضاح الكيني حاجز من عدم الوعي، سقطت به على الأرض. وتغبرت بالتراب.

– لم يمت لويس نوا بعد.

كان الكيني يصرخ، وتسمعه الحوائط الطينية المتهالكة، تسمعه حبال الغسيل المجزوزة في أطرافها، وذلك الطين المتكوّن من دلق المياه القذرة، لكن تينا لا تسمع، لم يكن أوقيانو يعرف شيئاً عن تلك الأيام الأربعة الأخيرة في حياة آل نوا. لا يعرف أن تينا انقلبت فجأة من زوجة كلاسيكية إلى أقصى حد، همّها الرئيسي، إفناء الزوج غيظاً،

إلى واحدة غير تقليدية بالمرة، مهمّتها الجديدة، هي إفناؤه عشقاً، وبمساعدة أعشاب العربي، حتى يخرج من صلبه طفل. معلوماته في هذا الصدد قديمة جداً، هي نفسها المعلومات التي يعرفها منذ عامين أو أكثر، ومؤكد أن دهشة ما قد أصابته، لأنه جاء ليخبرها بحالة الزوج الحرجة، ويتوقع زغاريد بعلو شجرة باباي، لا أن يراها تتمرّغ في التراب، وتغيب عن الوعي، بهذه الصورة. وقد كان أوقيانو، يذكر دائماً في جلسات أصدقائه الليلية، وحين ينتفخ رأسه بعرق الذرة القوي، أو الفودكا الروسية التي تأتي أحياناً عن طريق المهربين وتجار الحدود، أنه لم يتزوج، ولن يفعل، بسبب كلاسيكية المرأة، وحفاظها المميت على بنود الزواج غير المكتوبة، مثل بند الجحيم العائلي. لقد قرأ في شبابه كتاباً موجهاً للرجال اسمه عشرون خطوة نحو السعادة، تحدث عن التغذية الصحية، والشرب غير الضار، والنوم المريح لساعات معقولة، والعمل اليدوي، وحتى ممارسة حفر القبور والعادة السرية، و لم يذكر شيئاً عن الزواج أبداً. يلومه الأصدقاء لأن اسمه سيندثر بعد موته بلا ذرية تبقيه حياً، ويذكّرهم بأن لويس نوا وكثيرين غيره ممن يواجهون الجحيم العائلي يومياً، و لم يلدوا ذرية، أيضاً ستندثر أسماؤهم بمجرد أن يموتوا.

أيقظها الكيني بصعوبة من حالة الإغماء غير المبرر في نظره، أراد أن يحملها على ظهره الذي ما زال قوياً كفاية، ليحمل امرأة تزن سبعين كيلوغراماً، برغم تجاوزه سن الستين، وخاف أن يتلفت الشارع، ويهمس، ويتحدث بصوت عال. هنا اللوحة ليست معتادة مثل لوحة نوا المأساوية، فلن يصدق أحد أنها مريضة أو حامل مثلاً، وأنه صادف

أن وجد في بيتها ساعة المرض أو المخاض، ليحملها على ظهره إلى المستشفى. تركها في حوش البيت الصغير، وأسرع إلى السوق ركضاً، ومن هناك استأجر عربة كارو، يجرها حمار، وامرأتين متينتي بنيان الجسد والروح، اعتادتا غسل الموتى من النساء ولفهن بشراشف الدفن، وعاد إلى بيت نوا، حيث تولت المرأتان المهمة. واتجهوا جميعاً إلى مستشفى أنزارا الفقير، حيث عامل النسيج المسكون بالقاتل الكونغولي الشرس، ملقى على طاولة الفحص، والطبيبان الوحيدان بالمستشفى، مشغولان بحالته وقد تركا مغصاً كلوياً حاداً، عند رجل مسن، بلا علاج، ونصف طفل داخل رحم أمه، لمرضة تحاول أن تجرّه للخارج، ولسوء الحظ، كان ذلك الطفل، هو الذكر الأول لأحد سلاطين القبائل، وسيعد لخلافته قبل أن يرضع من ثدي الأم، ولو مات مختنقاً، لما بقي أحد له علاقة بمهنة الطب حياً في المدينة.

كأن إيبولا الرهيب يضحك، كأنه يسخر من السلاطين وأولياء عهودهم، ويود لو ينطق ليذكر الناس جميعاً، أنهم موتى لا محالة.

كان الطبيبان المشغولان بنوا، من أبناء المنطقة، نصر الدين أكوي، مسلم من قبيلة الدينكا، يحمل وجهها، وأبجدياتها الجسدية، وحبها لرياضة العدو، وصيد الغابات الخطر، لكن ثقافته القديمة ذابت حين غدا مسلماً بعد تعرفه إلى شيخ من الصوفيين، التقاه حين كان يدرس الطب في الخرطوم. ولوثر أياو، وثني من نفس القبيلة، لا تعجبه الديانات، لكنه لم يزدرها قط، ولا دخل له في عقائد الناس، ما لم يلزموه بشيء. طبيبان عاديان، بلا مواهب خارقة، ولا خيال أبعد من كتب التعليم التي درساها، أسوة بجميع الطلاب. لكنهما قطعاً يعرفان

كيف يخيطان جرحاً، ويعالجان رمداً صديدياً، وييسران الولادات المتعسرة لأي سبب، ويجريان عمليات إنقاذ الحياة كلها، بما فيها الولادة القيصرية، واستكشاف البطن في حالات التواء المصارين، أو الطعنات النافذة المنتشرة بشدة في تلك المناطق. وفي بعض الأحيان، يتسليان باستخراج رصاصة متيبسة من ظهر متمرد قديم، أو إزالة بواسير مزمنة من شرج رجل اعتاد وجودها. ولأن ختان الذكور عند المسلمين لا يعدّ عملية تستحق جهد طبيب، فقد تركاها لممرضين بالمستشفى، يجرونها على راحتهم.

في مراجعة سريعة لحالة نوا الغارق في الحمى وينزف من أحشائه وجلده، اتفقا على أنها ليست ملاريا المستنقعات التي يسبّبها طفيل «البلازموديوم فالسبرم»، ولا التايفود، ولا الحمى الراجعة أو القرمزية، أو حمى «دنقو» الفيروسية، أو أي حمى أخرى معروفة، تسبّب كل ذلك اليباس والنزف. اتخذا قراراً فورياً أن يعالج كحالة طارئة، ثم يحدّد مرضه بعد ذلك إن عاش حتى يتم الأمر. ثم علقت محاليل التروية من الملح والسكر، على يديه الاثنتين، حقن جسده بمادة «النوفالجين»، الصائدة للحرارة، وضعت على رأسه وقدميه، أكياس الثلج، ونودي على عدد من عمال مصنع الألبسة، خضعوا لفحص فصائل الدم، وانتزعت من المطابقين منهم، عدة زجاجات من أجله. لم يكن الطبيبان أو طاقم التمريض، يرتدون أقنعة على وجوههم، لأن الأقنعة القماشية كانت قليلة جداً، وتستخدم في غرف الجراحة فقط، ولم يخطر على بال أحد أنه يواجه خطراً يحتاج إلى قناع لاتقائه. كانوا يحاربون عزّلاً، ولا يعرفون ما الذي يحاربونه بالضبط.

لن يجاملهم إيبولا، ولن يحترم مهنة الطب التي يحترمها العالم أجمع، وبها عاش الطبيبان المختلفان في العقيدة، بنفس المميزات. مثل أن يقف لهما الناس في الطرق، رهبة وإجلالاً، أن يُدعيا لولائم السلاطين المميزة، أن يسمى المواليد الجدد، على اسميهما، أن يصفّق لهما المستمعون حين يحكيان قصة، حتى لو كانت مجرد اضطراب، أن يحجز لهما مقعدان وثيران في مباريات كرة القدم الموسمية، وفي عروض المسرح المكشوف التي تقام أحياناً، وفي ذلك اليوم بالذات، كانا سيجلسان في العصر، في أفضل مقعدين بالاستاد الرياضي، يستمعان إلى عازف الغيتار الزائر الكونغولي روادي مونتي.

حين وصلت تينا إلى المستشفى برفقة أوقيانو، والمرأتين المستأجرتين لحملها، صفق لها العمال المتجمعون عند المدخل، لا يعرف أحد من الذي بدأ التصفيق، ولماذا تبعه الآخرون؟ وما معنى ذلك؟ وفسره الكيني لنفسه، بأن العمال عدوا مجيئها بمثابة بداية جديدة في علاقتها بالزوج المريض، كانوا يصفقون لها، وللمرض الذي أعاد حبل الود، في نفس الوقت.

6

حب التغيير وحده، في مدينة شبه خامدة، هو ما جعل عازف الغيتار الكونغولي، الملقب بالإبرة، نجماً في ذلك اليوم، وفي بلد لا يعرف الشيء الكثير عن النجوم. ما جعل تذاكر حفله تنفد ببساطة شديدة، وتنشأ عراكات وصراعات قبلية، ومشاكل بلا حصر وسوق سوداء، وكل ما يتبع حفلات النجوم من صخب وفوضى.

منذ الصباح الباكر، بصحبة فتاته التي يتوكأ عليها، ومنظمي حفله الفرنكفونيين، كان روادي مونتي متوفراً في أكثر الطرق حيوية، الطريق الذي يسلكه المزارعون وصيادو غابات الجوار، وعمال المنشآت الحيوية، وباعة السلع الاستهلاكية الجائلون، وأيضاً المتسوّلون، واليتامى الباحثون عن نظرات عطف، قلما يجدونها.

منذ الصباح الباكر، تحسّس الكونغولي عدداً من ملصقات الدعاية التي تحمل وجهه مشوّهاً، وملابسه رخيصة قذرة، سأل صاحبته:

– هل أطالوا الأذنين، وقصوا الشعر، وغيّروا ملابسي الزرقاء الجميلة، وجعلوني مبصراً بعينين كبيرتين يا دارينا؟

قالت: نعم.

فابتسم واحدة من أعرض ابتساماته، التي لا يبتسمها عادة إلا

حين يكون الفرح قد هيّج غدته الدرقية، وأفرزت هرموناً نقياً. وكان روادي من المراجعين الدائمين لأطباء الغدد الصماء في بلاده، بسبب تطرفه في الفرح والحزن.

ردّد باللغة السواحلية، وهو يعترض طريق قافلة من الحمير، تحمل عدداً من معلمي المدرسة الابتدائية المحليين، ذاهبين إلى عملهم:

– الآن أعرف أن لي جمهوراً.

كانت فلسفته التي قضى سنين حتى استطاع تأطيرها، واعتناقها بشغف، أن ما يُشوَّه أو يُنتقَد، هو ذلك الذي يلفت النظر، ولو لم تلفت تلك الملصقات الدعائية أنظار الناس، لظل على حاله راكداً في الشوارع، وبالتالي راكداً في حفله. كان شبه متأكد من أنه وسط التشويه الذي حدث، هناك من استعد ليأتي ويطرب بعزفه المتفرد... نساء جميلات، شباب بشعور ممشطة ومدلكة جيداً، أثرياء يحبون الإنفاق، سلاطين يملكون سلطات القبائل، ويحتاجون إلى مصاحبة نجم.

أضاف، وهو يتفادى بمهارة، لسان حمار أراد أن يلعق أناقته:

– آسف لاعتراضي طريقكم يا سادة... هل تحبون الموسيقى؟

– ومن الذي لا يحبها؟

علق أحد المعلمين، هو نفسه الذي يركب على الحمار، صاحب اللسان اللاعق، وكان من سوء حظ روادي، أنه لن يحضر ذلك الحفل، لا هو ولا جميع ركاب القافلة، ذلك أن مرتبات معلمي المدرسة الابتدائية من الوطنيين، كانت في أفضل حالاتها، بالكاد تكفي ليعيش أحد، وأن الحفلات الموسيقية، وعروض الترفيه التي تغامر بالمجيء

أحياناً، تعد ترفاً لا يقدر على نفقاته سوى القليلين، تحدث المعلم أكثر مما ينبغي، وأكثر بكثير مما هو مطلوب، لتثبيط همة فنان زائر، وضح تلك النقطة الهامة في مشوار حياته، ونقاطاً أخرى عديدة، عمّمها على المدينة بشكل تام، وانتهت المحادثة المؤلمة ورأس روادي يدور بشدة، نظراته الهائمة تتحاوم حول وجوه المنظمين الذين لم يدفعوا له شيئاً حتى الآن، قالوا: لك ثلثا إيراد الحفل، ولنا الثلث، واستضافوه في بيت حقير، بلا مميزات، لم يستضف في مثله، حتى حين كانت الحروب الأهلية في أفريقيا، تشتعل وسط موسيقاه، وتخفي البيوت الفخمة تحت أبسطة الدم.

إن كان ذلك الرجل الذي يركب حماراً ذا لسان لاعق، صادقاً في حديثه، فإنه في أغلب الظن، سيعود إلى كينشاسا، ماشياً على قدميه.

أراد أحد المنظمين أن يتحدث، أن يبيّن سخف تلك الطريقة في استطلاع الآراء، لكن هؤلاء المنظمين المتورّطين بجدارة في زمن إيبولا، ولا يعرفون بتلك الورطة، لا يعلمون أنهم مهما تسلطوا أو يئسوا، فلن يمنعوا رجلاً اعتاد اعتراض الطرق، من مزاولة نشاطه، وها هو الآن يعترض طريق ست نساء، يحملن جرار اللبن على رؤوسهن، وذاهبات لبيعه في السوق، عرف أنهن نساء من حفيف الثياب، ورائحة العطور البيتية، ووقع الخطوات على الطريق، برغم أن الجرار الثقيلة، كانت تغيّر من نهجها الأنثوي:

– مرحباً سيداتي... أنا روادي مونتي... هل تحب إحداكن الموسيقى؟

كان يتحدث بالفرنسية هذه المرة، و لم يكن لدى بائعات الحليب

طموح حتى لتعلم كيف يغسلن شعرهن، ويمشطنه، ويضعن شيئاً من الكحل الأسود الرخيص على عيونهن الحزينة، تجاوزن رطانته ومضين في طريقهن، و لم ينتبهن إلى صوره المشتتة من حولهن، وتضايق البصر، لأنهن بالكاد ينتبهن إلى وجود القمر في السماء أو عدم وجوده.

وحده الكيني أوقيانو، أعاد توازن الروح إلى العازف المحبط، وهذه المرة لم يعترض روادي طريقه، هو الذي اعترض الطريق، خبط على يد العازف بسرعة، وكاد يقبله وسط توتر إيبولا المتناسل في دمه، لكن العازف تفادى القبلة بأن انحنى وحك ساقه التي لم تكن بحاجة إلى حك، صاح بتلك العصبية المعهودة:

شرف لنا يا سيدي أن تحيي حفلاً في بلادنا. أقصد البلاد التي أنتمي إليها بحكم الإقامة، أنت من أعلام أفريقيا... هل توقّع لي على هذا الأوفرول؟

ثم أضاف بنفس العصبية والسرعة:

– أنا أنامي أوقيانو... من كينيا.

كان يرتدي ثياب العمل، لأنه ذاهب إلى المصنع، وكان دقيقاً في احتفاظه بالتذكارات التي يستخلصها من زائري أنزارا بجميع مواهبهم وأطيافهم... من رسّامين ومغنّين، وسياسيين، ودعاة وحدة وانفصال على حد سواء، يحتفظ بها في هذا الزي الذي امتلأ جسده بالتذكارات. وقبل أن يعلق العازف، كان أوقيانو يخرج من جيبه قلمه الأحمر الخاص الذي عبّأه بحبر اخترعه وحده، وكان غير قابل للمحو أبداً. مدّ بالقلم للعازف، وناوله طرف كمّه ليوقّع عليه، وانطلق يعدو إلى مصنع الألبسة. في ذهنه أمسية جميلة سيقضيها برفقة موسيقى

الكونغولي التي استمع إليها من قبل في أنزارا، وفي أسطوانات قديمة، عند أصدقاء يملكونها، و لم يكن يدري أن الأمسية لم تكن ملكه ليقرّر أين يقضيها... كان كل شيء في المدينة يزحف ليكون ملك إيبولا، ووحده القاتل الرهيب ما سيقرر، من الذي يستمتع بموسيقى روادي مونتي، ومن يرقد محتضراً نازفاً دمه، عند الطبيبين الذين سيعلقان في حالة لويس نوا، وحالات أخرى ستتبعها، حتى ينجلي أو لا ينجلي الأمر. وحين يأتي العصر، ويعلن مايكروفون الاستاد الرياضي عن بداية الحفل الموسيقي، سيكتشف روادي نفسه، أنه أراق هرمونات الإحباط في البداية، بلا مبرّر، فقط غير معروف حتى الآن، إن كان سيعود إلى بلاده راكباً عربة نظيفة، وحول عنقه قلادة من الزهور، أم لا يعود على الإطلاق.

في ذلك العصر، حين وضع له مقعد محترم من خشب المهوقني المبطن بجلد وحيد القرن، في وسط الاستاد الرياضي، وأوصلوا غيتاره العريق بمكبّر للصوت، يعمل بالبطاريات الطويلة الأجل، وأوعز له الفرنكوفونيون، أن يتنحنح، ويتأكد من سلاسة أوتاره، قبل أن يبدأ العزف، فوجئ روادي أنه يشم جمهوراً، يشم نساءً يانعات، ونساءً أقرب لليانعات، يشم ملامح من جيل الرواد، وجيل الوسط، والجيل الحديث الذي ألهبته موسيقى جاك ألينو، ودريدو الحداد التي اخترعها من إيحاء حك الصدأ عن الحديد. تأكد لروادي أن الأمر حقيقي، ولو كان مبصراً لما دقق بهذه الطريقة واكتشف كل هذا الزخم.

كانت هناك بالفعل عشرات الفتيات، من عشرات الأعراق والقبائل، درّبن سيقانهن على القسوة، وجاهزات للرقص في أي

لحظة، كانت ثمة وحدة وطنية خالصة، وأعضاء فرقة أنزارا للفنون الشعبية، بمن فيهم الخال ماجوك، كانوا حاضرين، وترتعش سيقانهم من شدة التوتر، لم يدعهم أحد للمشاركة، ولن يشاركوا بلا دعوة، ويفضّلون توتر السيقان على جرح الكرامة. وقد تفّه الخال ماجوك من الأمر، حين أثنى على طبول الجلد والنحاس، وآلة التوكوتكاو، المصنوعة من عيدان القصب، مفضّلاً تلك الآلات التي درجت الفرقة على استخدامها، على آلة الغيتار الكلاسيكية التي ستندثر قريباً، تحت زحف التغيير. بديهي أن الموسيقى وحدها لن تكون كافية لإسعاد أولئك الناس كلهم، والعزف على أي آلة بلا مغنّ، أشبه بقيادة قارب بلا مجذاف، وكان روادي من أولئك الذين يقودون القوارب بلا مجاذيف، لكنهم يصلون دائماً إلى بر الأمان.

فجأة أراد العازف أن يختبر فطنته، قبل أن يعلن مذيع الحفل المتأنق، بداية الكرنفال، وقف على قدميه، تنحنح بقوة، صرخ:

– روادي مونتي، يحيّي جماهير أنزارا.

وجاءته أصداء الهتافات، أقوى كثيراً من فطنته:

– وجماهير أنزارا تحيّي روادي مونتي.

هتاف من الداخل، ومن خارج الاستاد حيث نشبت شجارات عدة، وصراعات قبلية، وسوق سوداء واتهم المنظمون في أمانتهم، من دون أي إثبات أنهم سرقوا قرشاً من أحد.

في ذلك الصباح نفسه، وبعد ساعتين تقريباً من الوقت الذي كان فيه روادي مسيطراً على الطريق الحيوي، يعترض بائعات الحليب ومعلمي المدرسة الابتدائية الخشنين إلى أقصى حد، استطاعت تينا

أزاقوري، أن تبلغ الغرفة الصغيرة التي حجز فيها زوجها. وسمح لها بمشاهدة جزء صغير من إعيائه، لأن الطبيبين كانا يغطيان بقية الإعياء بجسديهما الفارعين، فوجئت بأنها ترى جزءاً من لويس آخر، غير زوجها الذي تعرفه جيداً، حتى وهو يهجرها عاطفياً. ليست هذه رعدته، التي يرتعدها من حمّى المستنقعات، ليس هذا لون جلده الداكن، ليس هذا عرقه ساعة المرض، وتلك الرقدة على ظهره، ليست رقدته، التي كانت دائماً على بطنه. وحين ابتعد أحد الطبيبين قليلاً، ربما ليريح عينيه من منظر المأساة، أو يحضر شيئاً مهماً من أحد الرفوف الجانبية، استطاعت أن تشاهد نصف الإعياء وأيقنت في تلك اللحظة، أنها غدت أرملة.

الآن أملها الوحيد في جهد البارحة، وأن يكون قد غرس طفلاً، ويكون بحجم تخيّلاتها، ذكراً، اسمه ماجوك.

ما حيّرها في تلك اللحظة،، هو السبب في هذا المرض المفاجئ، لا تذكر بالضبط، كيف خرج نوا من البيت في الصباح المبكر، لأنها كانت منتشية، وشبه غافية، لكنها تذكر جيداً، أنه التقط فرشاة أسنانه المستهلكة، من حيث يلتقطها كل يوم، ارتدى بذلة العمل الرمادية بنفس طريقة ارتدائه لها كل يوم، الشيء الجديد الوحيد، أنه صفر بلحن أفريقي عريق، وأغلق الباب في هدوء، وهو يخرج، و لم يفعل ذلك منذ سنوات. كانت تعرف عاداته جيداً، يسير في خط متعرّج، يختصر به الطريق إلى المصنع، وكان خطاً قاحلاً ليس فيه متجر واحد، ولا بائع خضار، ولا بائعة ماء، ولا مجرد طائر مغرّد، أو غير مغرّد.

ماذا حدث للويس نوا؟

لا أحد يعرف، ووحده إيبولا الذي يرعى في دم عامل النسيج، ودماء الآخرين الذين اقتنصهم منذ البارحة، يعرف، ويخطط وينفذ متى ما استطاع، وقد أعجبته أنزارا كثيراً، أعجبه مصنع الألبسة القطنية، الممتلئ عمّالاً وزخماً، أعجبه السوق وحيّ البغاء والخمّارات، والاستاد الرياضي، والمدارس، والمستشفى، والشوارع الرئيسية، ولسوء الحظ، فقد استطاع أن يقتنص نصر الدين أكوي، أحد الطبيبين اللذين يواجهانه أعزلين، اقتنص ممرّضاً وممرضة، وامرأة حاملاً، على وشك الوضع.

ذلك المساء، كان الكيني أوقيانو، يبكي وحيداً في بيته، لقد ترك مستشفى أنزارا، مقسماً أن ينسى مأساة لويس نوا، لعدة ساعات، يستعيد فيها النشوة على أنغام روادي مونتي، اشترى تذكرته باكراً، وانتظم في صف الدخول الطويل، وأحس فجأة بالدوار، لدرجة أنه اتكأ على كتف امرأة أمامه، وظنته يتحرّش بها، وكادت تستغيث. اكتشف أنه محموم بشدة، ومتوعّك، ويتنفس بصعوبة، ويحس بألم في الركبتين، تجرجر إلى بيته آملاً أن ينعشه الطريق، ولم ينعشه، وفي البيت حين أحس برغبة في القيء وتقيّأ بالفعل... شاهد الدم وبكى. كان ينزف من حلقه، وجلده وفروة رأسه، ويبكي وتتراءى له حياة الستين عاماً التي عاشها، مجرد عمر قصير، عمر طفل خرج من رحم أمه، ومات قبل أن يمسك بثدي الرضاعة.

لن يعثر عليه أحد، لأنه لم يسع طوال حياته للعثور على أحد، وأصدقاؤه الليليون الذين ينتفخ معهم، بعرق الذرة القوي وفودكا تجار الحدود المهرّبة، مجرد أصدقاء ليل، وصداقة الليل يمحوها النهار.

زملاؤه في مصنع الألبسة، إما رابضون في المستشفى، ينتظرون أن يرحل نوا، ليقوموا بواجب الدفن والعزاء، أو في بيوتهم، يحلمون بصاعقة تدك جيمس رياك ومصنعه.

كانت قد اتضحت له المسألة بشكل مزعج، لويس نوا سيموت، وقد جره إلى الموت أيضاً بنفس الطريقة، فكر عشرات المرات، أن لا يخاف ويقاوم، نجح في المقاومة إلى حد ما، لكنه أخفق في عدم الخوف، الشيء الإيجابي، أن إحدى جاراته كانت بحاجة إلى سكر في تلك اللحظة، من أجل ضيوف طارئين، وتعرف أن منزله لا يخلو من السكر أبداً، فقد اعتاد شربه مذاباً في الماء، ويردّد دائماً، أن ذلك هو مصدر طاقته وحيويته في هذه السن...

7

في اليوم التالي، بدأت كلمة وباء تتردّد داخل المستشفى. في البداية بصورة سرية للغاية، بين كل طبيب ونفسه، ثم بين الطبيبين وبعضهما، وأخيراً بصورة واضحة، ردّدها طاقم المستشفى، وعمال تنظيف الغرف، والزوار، والعاطلون الممدّدون في الحديقة المهملة المحيطة بالمكان.

وباء... وباء... وباء

لقد وصل مساء البارحة، محمولاً على ظهر حمار مستلف من أحد فاعلي الخير، الكيني أنامي أوقيانو، وإحدى بائعات العرق في حيّ الخمارات، شاء الحظ أن تختلس قبلة، من نوا ساعة عودته الملوّثة من كينشاسا، وهي سكرانة. في منتصف النهار، وصل عاملان آخران من عمال مصنع الألبسة، كانا داخل اللوحة المأساوية التي ركضت بلويس نوا في الشوارع.

منقو نقوشوا الحلاق، الذي كان من أعلام أنزارا، وأسعدهم وجهاً، ولا يعرف كيف أصيب، لم يأت مطلقاً، قاوم بشدة، محاولات رسمه في لوحة مأساوية، أو إلقائه على ظهر حمار، قد يبرك من وزنه الثقيل، فضّل أن يموت سعيداً في دكانه، وبيده مقص الحلاقة الذي ما فارقه طوال الخمسين سنة الماضية.

كان تداول الهمس من أعرق صفات المدن البعيدة. المتاجرة بالهمس ليست عيباً، والهمس المطبوخ جيداً، والمصوغ بلغة تعبيرية سلسة، له عشاقه، والمتحمسون له بشدة، ويمكن في أيام القحط وانعدام وسائل الترفيه الأخرى، أن يحتل صدارة السلع المتداولة بين سكان تلك المدن.

ومن داخل المستشفى الذي يرقد فيه لويس نوا وغيره من المصابين الجدد، خرجت همسات كثيرة، روعي فيها أن تكون بنكهات مختلفة، بعضهم همسها بطريقة كوميدية، بعضهم تراجيدياً، وبعضهم كان جاداً إلى أقصى حد وهو يهمس. السوق الذي يسيطر العرب المهاجرون من الشمال، على تجارته منذ عهد الرق، وريش الديوك الملوّن، والأحذية التي تصنع من لحاء الأشجار، لم يتفاعل مع الهمسة الصارمة، التي تقول إن هناك وباءً غريباً في المدينة، يؤدي إلى الموت، وبلا علاج حتى الآن. التفاعل مع تلك الهمسة، يعني أن يغلق التجار أبواب دكاكينهم التي ورثوها عن آبائهم، وعاشوا على رزقها سنين، ويخططوا بإرهاق لتصفية حساباتهم، وتمزيق دفاتر الديون، ومغادرة المدينة في أقرب وقت، خالي الوفاض، كما دخلها أسلافهم الذين أسّسوا ذلك الرزق.

بائعات الهوى وصانعات الخمور البلدية من الذرة والشعير والبن، أيضاً كرهن تلك الهمسة، التي تعني دحرجتهن إلى الطهارة، وعدم إغواء الغير، والاحتفاظ بأجسادهنّ محصنة من غزو الغرباء، وتعني دحرجتهن للأخلاق، حتى لا يموت الناس سكارى ودنسين. رفضن الانصياع لقانون عدم الفناء، ورفضن الموت الأكيد الذي نادت به

الهمسة، وفي النهاية قرّرن جميعهن، وبلا أيّ اتفاق بينهن، أن ينحزن للرذيلة، ويعملن حتى النهاية. ولا يعرف أحد من الذي اخترع تلك الجملة المؤازرة التي تمسّكن بها، والتي تقول:

إن حياة بنات الهوى، أقسى كثيراً من الموت.

عمال مصنع الألبسة القطنية، أحبوا الهمسة الكوميدية، النكتة التي تقول، إن المرض الغامض لا يصيب سوى القرود، وكل من أصيب به، قرد. بدأوا في سبيل التسرية عن أنفسهم، وإبعاد الفزع الذي كان يسيطر عليهم بعد إصابة عدد من الزملاء، يتحسّس بعضهم مؤخرات بعض، بحثاً عن أذيال مفترضة، وأقسم الكثيرون وهم يضحكون، إن نوا كان يملك ذيلاً، والكيني أوقيانو، كان يحب فاكهة الموز التي تحبها القرود، أكثر من أي شيء آخر، وأسرع أحدهم إلى مكان الآلة التي يشغلها أوقيانو، وجاء بكومة من قشر الموز اليابس.

وحده جيمس رياك، صاحب المصنع، كان واجماً، ولأول مرة منذ أنشأ مصنعه، قفزت إلى ذهنه، شبهة الخسارة. دراسته لهندسة النسيج في يوغندا، وحياة الغابات والكر والفر التي عاشها من قبل، علمته أن يكون حذراً في مجاراة القطعان. كان يعتبر نفسه الراعي، وهؤلاء جميعاً قطعانه، كان دفتر تسجيل أسماء العمال، ووردياتهم، واستحقاقاتهم أمامه، وبيده القلم الحقيقي والمعنوي، ليضيف ويمحو على راحته. لم يمحُ اسم لويس نوا، لأن الآلة الجديدة التي استوردها حديثاً وينوي تنشيطها في أقرب فرصة، قد محته، والمرض الغريب، غير معروف الهوية، يعمل بجهد لإعدامه إلى الأبد، هذه ليست خسارة. هز رأسه: ليست خسارة. الكيني أوقيانو، برغم أعصابه القابلة

للانفلات، حتى لو طنّت بعوضة بجوار أذنه، وإنه كلما حاول ترقيته إلى رئيس عمال، أو مساعد رئيس، تردّد وألغى الفكرة، إلا أن وجوده في المصنع يعادل وجود خامات القطن، ومواسير التبريد، والشاحنة التي تنقل الإنتاج إلى حيث تبتلعه الأسواق، ولن يمحو اسمه، حتى يتأكد تماماً من أنه لن يعود راكضاً من هذا الباب مرة أخرى. الذين كانوا داخل اللوحة المأساوية وأصيبوا، عاديون بلا مواهب خارقة، وبالرغم من ذلك فإن خسارتهم من الممكن أن تهز المصنع.

تحاوم في وسط ضجيج الآلات، ربت على كتف آلة تعمل، وشتم آلة معطلة، وصرخ عدة مرات منهياً عبث العمال بسراويل بعضهم، نبّه إلى اتخاذ الحيطة والحذر، وذلك التنبيه بالذات، أوحى إليه بفكرة مجنونة، ما لبثت أن ضحكت لها تعابير وجهه: الأقنعة... نعم الأقنعة الواقية.

في تلك الظهيرة، جلس جيمس رياك، على طاولته مستعيداً موهبة الرسم القديمة، التي كان يمتلكها، وألغاها بعد ذلك من سلسلة اهتماماته، باعتبارها موهبة سخيفة، أيام رسم وجوه المستعمرين، وأضاف إلى تفاصيلها عيون ثعالب، وأنوف ببغاوات، وآذان قرود من فصيلة الشمبانزي. أيام عُلقت إحدى لوحاته الزيتية، على مبنى جمعية الصليب الأحمر، قبل أن تدكه الحرب، ونال عنها جائزة. وأيام رسم لوحات متعددة لفتاة إنجليزية، كان يحبّها بطريقة بذيئة، ولا يجرؤ على الاعتراف بذلك.

ابتدأ رياك يرسم. رسم قناعاً مبطناً، من عدة طبقات، ومرره إلى خط الإنتاج بسرعة غريبة، غداً سيكون في سوق أنزارا، قناع رياك الواقي... غداً.

أشياء كثيرة لم يكن جيمس رياك يعرفها، منها أن القاتل الرهيب بات يملك حصة من منتجيه، تعادل مصنع ذخيرة حيّة، منها البدائية المطلقة في قضاء الحاجة، وتلوّث الطرق والخضروات، ودقيق الخبز، ومنها أولاً وأخيراً، سيطرة المعتقد الأقوى في بيئة المعتقدات المتوارثة، بأن الموت يوزعه ساحر شرير.

الذي حدث في مستشفى أنزارا، وداخل الغرفة الصغيرة المعبّأة بالمحاليل والدم، ورائحة المطهر، أن لويس نوا قد أفاق من إغمائه، تلك الإفاقة التي تعرف وسط المحليين، بأنها «صحوة الموت»، ولا يستطيع أحد أن يجزم، إن كان ذلك الاسم مطابقاً للحقيقة، أم مجرد اسم بلا هوية. كانت حرارة جسده قد هبطت إلى المعدل العادي، بثور الجلد الدامية بدأت تختفي، لسانه غدا رطباً، وشجاعاً، ويستطيع أن يسب ويعارك، وأيضاً يسهم بسلاسة في إلقاء نكتة قذرة. تحركت يده عادية، لتحك رأسه، وقدمه استطاعت بلا مجهود، أن ترفس ملاءة السرير التي كانت تغطي قدميه.

لم يكن أحد الطبيبين موجوداً، ليراقب كل تلك التغيّرات، كان الاثنان مشتتين بين الكيني أوقيانو، وبقية المصابين الذين وصلوا اليوم، وانطلقت بعد وصولهم تلك الهمسات المتباينة. نصر الدين أكوي، كان مصاباً ولا يعرف، و لم يسقط إلى الآن، وبرقت في ذهنه أيضاً، مسألة الأقنعة الواقية، وانطفأت سريعاً، بسبب انشغاله الشديد.

طلب لويس نوا من ممرضة عابرة، طالعته بشيء من الحذر، أن ترسل له غداءً لأنه يحس بالجوع، منعها أن تسرع لتعلن استيقاظه بلهفة، حين ابتدأ بتحديد ما سيتناوله في ذلك اليوم، وكانت أصنافاً

عادية، ويمكن أن توجد في سلة أيّ زائر للمستشفى، وكانت موجودة بالفعل في سلة تينا التي طبختها، وأحضرتها معها ذلك الصباح، حين ذهبت إلى بيتها وعادت. هي أيضاً تحسّ بتوعك خفيف، وتعرف سببه، أو تزعم أنها تعرف: الإرهاق والخوف على الزوج المحتضر.

أكل نوا بتأنٍّ وشرب بمتعة، وتجشأ، مستغلاً صحوة الموت إلى أقصى حد، ولولا ازدحام المكان، وافتقاره للخصوصية، لدار بعينيه متفحصاً الممرضات، بحثاً عن واحدة غير طموحة، يدغدغ مشاعرها، قبل أن يموت.

قال يخاطب زوجته التي ارتعبت من نضارته بشدة، واستعدت بكل كيانها، لتقبّل رحلة الترمل المقبلة، وأمام كل الناس، إنه كان يخونها طوال العامين الماضيين.

بالطبع ليس موضوعاً جديداً، وتينا تعرف بموضوع الخيانة منذ كان مغازلة عاملة تنظيف غرف في نزل حقير، حتى غدا موتاً وبكاءً وزهوراً بنفسجية تغرس في قبر. تصنعت الدهشة، وهي تنظر إلى أمها التي لن تبيع الماء في الشوارع، في ذلك اليوم، وستبقى مع ابنتها، حتى تسلّم الجثة، ودفنها وأيام العزاء كلها.

كنت تخونني؟

نعم... مع إلينا وكانيني التي التقيتها أخيراً.

ثم رافعاً إصبعه في وجهها:

وكنت سأخونك أيضاً مع أي امرأة أخرى، لولا هذا الساحر الملعون الذي قتلني.

هذه إحدى بذاءات صحوة الموت، أن يفتح الناس مراحيضهم

بكل قذاراتها، بزعم أن الموت الوشيك سيغلقها إلى الأبد، ويصادف أحياناً أن لا تكون لتلك الصحوة علاقة بالموت لا من قريب ولا بعيد، فيعيشون حيواتهم الباقية نادمين.

من خصائص إيبولا المتزعم للموقف بكل عنف وسرية، وبرغم أنه كائن فتاك، خاصية لا يعرفها نوا ولا غيره، أنه يعفو أحياناً، السبب في عفوه غير معروف، قد تكون مناعة الجسم القوية التي يملكها البعض، هي التي تلوي ساعده، وتجبره على الفرار بعيداً عن الدم، وقد يكون أيّ سبب آخر، ولويس نوا لم يكن داخل صحوة الموت، في تلك اللحظة، كان داخل عفو إيبولا.

جميع من في الغرفة، تنفسوا الهواء الفاسد بعمق، الطبيبان، الممرّضون، الفضوليون الذين اخترقوا حصار منع الزيارة، وتزاحموا. بكت تينا، لا من خياناته التي حدثت وانتهت، ولكن من استعداده للخيانة مرة أخرى، لو عاش.

لقد أفسد عليها بكاء الأرامل الذي كانت ستبكيه، وحدادهن الطويل الذي كانت ستنفذه، أفسد نوا كل شيء.

ما أنقذ الموقف أو زاده كآبة، في تلك اللحظة، أن إحدى الممرضات جاءت تركض، وفي فمها خبر جديد:

مات الكيني أنامي أوقيانو، ماتت بائعة الخمر التي اختلست القبلة من نوا ساعة قدومه من كينشاسا،، مات عامل من عمّال مصنع رياك، وماتت حمامة، ارتطمت بزجاج إحدى النوافذ.

8

وباء... وباء خطير جداً.

كانت كل الدلائل في المدينة تشير إلى ذلك.

كلها تصيح وتنطق.

السوق الذي ركدت حركة البيع والشراء فيه، ووقف تجاره القليلون ممن رفضوا الهمسة الصارمة، وأصروا على مواصلة الكفاح الجشع، تحت ظلال دكاكينهم، يتلفتون، المنشآت الصناعية التي خلت من رائحة العمل، باستثناء مصنع رياك الذي كان ما يزال يعمل في إنتاج الأقنعة الواقية، اللوحات المأساوية التي تمثل المرضى محمولين على السواعد، وعربات الكارو، ومجرورين في الأرض الخشنة. ركود المدارس، ودوائر العمل الحكومي، واستعداد كثيرين ممن يملكون قرار الفرار، وتكاليفه، إلى الهجرة، قبل أن تغلق الحدود، وتعزل المدينة عن العالم الخارجي.

لم يعد المستشفى بعنابره المحدودة، وأسرّته التي لم تجابه أوبئة عظيمة من قبل، وطبيبه الوحيد لوثر، بعد أن سقط نصر الدين أكوي، وحمل إلى بيته ليموت بعيداً عن فضائح صحوات الموت، يكفي لمواجهة الحدث، وفي الساحة التي ارتادها المتمردون ذات يوم، استعادوا

فيها ذكريات تباريح الحرب المؤلمة، وتدربوا على مضغ المبرّرات التي كبّدتهم خسائر فادحة، وخصّصها لويس نوا بإصراره وحده، لتكون مسرحاً لتكريم رجل العام الذي ناله، فرشت آلاف الأبسطة من القش، والقطن، والرمال الناعمة، علقت محاليل التروية القليلة، في السواعد الخشنة الجافة، وغطيت الرؤوس المتعرّقة، بالخرق، لمكافحة الحرارة، بعد أن انتهى عقار النوفالجين، لم يعد بالإمكان مداواة أحد بأمانة وإخلاص، و لم يعد بالإمكان أيضاً، دفن أحد بهيبة ووقار. كان كل ذلك ترفاً في زمن إيبولا.

كانت السلطات في دولة الكونغو، قد أعلنت أخيراً، هوية القاتل الذي يعربد في البلاد منذ زمن، بلا هوية، أعلنت ذلك بلسان الدكتور نوجي موشولا، الذي قال إنه اكتشفه، سمّاه إيبولا على اسم نهر قروي صغير، ظهر بقربه لأول مرة، في بلدة كيوكيت، وكان ظهوراً خجولاً أدّى إلى موت حطاب عجوز، وأفراد أسرته، وبعض المقربين منه. تحدث الطبيب عن تركيب القاتل الجسماني، وتخفيه المحكم وهياجه الشرس، حين يتهيّج، ومقدرته على اختراع الأذى بملايين النسخ التي ينتجها داخل الضحية، وأيضاً عن إمكان أن يفرّ من بعض الأجساد التي تقاومه...

كانت كلمة الطبيب الأخيرة، التي أسعدت إيبولا كثيراً، هي وصفه لموت الضحايا، بأنه أقسى موت في الدنيا كلها.

وفي خطوة ملهمة سريعة، شبيهة إلى حد ما بتلك الخطوات التي تتخذ عادة، في حق المطالبين بالحرية، حين تقتلع عيونهم من محاجرها، والطامعين في السلطة، حين يعدمون في الساحات العامة،

رمياً بالرصاص أو على أعواد المشانق، أغلقت حدود الكونغو كلها، وأعقبت ذلك نبرة تفاؤل واضحة، حين أعلنت السلطات مجدداً، أنها تسيطر على الوضع تماماً.

الذين كانوا يقدرون العلم، وجفت ألسنتهم من كثرة ما ردّدوا ونوّهوا، وحذروا، في الأيام السابقة، انطلقت منهم ضحكات فزع خاصة، فزعين لكنهم منتصرون، وزعماء القبائل الذين دججوا السحرة بخامات التعاويذ، وأرسلوهم في القرى والغابات وضفاف الأنهار البعيدة، بحثاً عن الساحر الشرير، اختلت هيباتهم إلى حد ما، حين طالبهم أتباعهم بإعادة أرواح أولئك الذين غيّبهم الموت العلمي.

كان مألوفاً أن يضع تابع قدمه، أمام زعيم وقور يمشي مختالاً، وسط العشيرة، ويسقطه، أن يصرخ طفل في وجه زعيم القبيلة الذي كان يخيفه في الماضي، بأعلى صوته: أعد إليّ أمي التي ماتت علمياً، لا بسبب الساحر الشرير.

ومثل أي بلد أفريقي آخر، كان هناك بالطبع سحرة، وسحرة شريرون إلى أقصى حد، تخصّصوا في نهب الدم، وتعسير الولادات، والعمل في خدمة الموت ما استطاعوا، وقد تمنّى كثير منهم في تلك الأيام، لو أنهم امتلكوا قدرات ذلك المجهول، وكانوا هم أيضاً يظنونه ساحراً، لكن أكثر تفوّقاً منهم.

لن يقف إغلاق الحدود عائقاً أمام الرعب، ولن تستطيع السلطة مهما امتلكت من بطش أو سلاح، أن تمنع ميتاً وشيكاً بفيروس إيبولا القاتل، من الموت بسلاح حراس الحدود، عبدة الأوامر، لو اختار بنفسه ذلك الموت.

ستتدفق قوافل الهجرة شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، وفوق وتحت ومن الجانبين، ولأنه لا توجد أخبار حتى ذلك الحين،عن تسرّب إيبولا إلى أنزارا في جنوب السودان، عبر دم عامل نسيج تمرّغ في جسد فتاة ليل كونغولية مصابة، اسمها كانيني، فقد كانت ثمة قافلة مبعثرة وفزعة، وغير مجهّزة للسفر جيداً، تضم عربات قليلة، وحميراً، وحفاة يمشون على الأرض، في طريقها إلى أنزارا... كان من بين ركاب تلك القافلة، شخصيات مثيرة للجدل، فيها رياضيون مخضرمون، ووزراء سابقون استولوا على المال العام وأقيلوا، وصعاليك آثروا حياة الليل لسنوات طويلة، بكل تجرّد ونكران ذات، وكان بينهم للأسف الشديد، الساحر الكبير جمادي أحمد، الذي ترك شارع زومبي المسمّى باسمه من أجل خطأ ارتكبه نوا، والآن يهاجر مرتعباً إلى بلاد نوا، التي يسكنها الرعب أيضاً، ولن تكون البلاد المناسبة التي يفر إليها ساحر لا يود أن يموت. أكثر ما كان يغيظه في تلك اللحظة، هو أن لا أحد من الفارين معه في تلك العربة الكئيبة، أبدى اهتماماً خاصاً به، وأنه جرّب عدداً من الحيل الكلاسيكية لجذب النظر إلى رعبه، و لم تلفت حتى نظر تلك المرأة العجوز التي كانت من جيله، وتعرفه، وعرضت عليه أن يتزوّجها منذ أربعين عاماً وأبى، وحتى ذلك اليوم حين تنرفز وغضب، وألغى تمركزه في الشارع، كانت موجودة وتشهد عروضه، وذهلت كما ذهل الآخرون حين اختفى.

كان عازف الغيتار، روادي مونتي، الإبرة، قد عرف بأمر الوباء القابض على حلق المدينة، أخبرته الفتاة العصا دارينا، وهي تخاطبه من ركن قصيّ في البيت الحقير الذي استضيف فيه، خوفاً من أن تعديه أو

يعديها، إن كان أحدهما مصاباً، وأخبره منظمو حفله الفرنكوفونيون، وهم يدخلون إلى البيت، ويخرجون ويتهامسون، ويرفسون أثاث الغرفة القليل، المبعثر أصلاً بلا نظام. نشطت هرمونات غدته الدرقية، لدرجة أن عينيه جحظتا بتلك النظرة الهستيرية المعروفة في نشاط الغدد، نبضات قلبه تسارعت بشكل عشوائي، وارتعبت أصابعه، ولم تستطع أن تميّز بين لحن قديم من ألحانه المعروفة، ولحن جديد كان يؤلف حروفه في تلك اللحظة. صرخاته استفزازية جداً، وأوامره غير قابلة للتنفيذ لأنه لم يعد في نظر الفرنكوفونيين، نجماً يستحق أن تُرخى له أذن، كان مجرّد ميت مؤجّل، يقف معهم في طابور الموت الطويل.

كان يصيح:

– كسبنا الكثير من الحفل يا رفاق، غيّروا هذا البيت الوضيع، لقد كرهته، أريد حوض بانيو لأغتسل، أريد مروحة بلا صوت حتى أنام... صابون حمام من ماركة إمبريال، أريد شامبو لشعري. دارينا... دارينا... هل قبلني كلب مسعور أثناء الحفل؟... قولي... هل أمسك بيدي أحد، هل تنفس في وجهي أحد؟ وتلك الفتاة التي ألقت بشعرها على صدري، هل كان خداها متورّدين؟

اعتبرته الفتاة العصا، أكبر مزعج تلتقيه في حياتها، وكانت من قبل تهوى إزعاجه الصاخب، وتطلب منه في كثير من أوقات الهدوء والتأمّل، أن يزعجها بأي شيء يخطر على باله، كانت لقيطة بلا أصل معروف، وروادي هو الذي صنعها. التقطها من الطريق، حين كانت مشروع طفلة بلا حماية، ستكبر في الطريق، وتصبح جزءاً هاماً في نسيجه الضال، وربّاها كما يربّى الأطفال عادة، الأكل الصحي،

النظافة، شيء من التعليم والأناقة، وتحولت بمحض إرادتها إلى عصا، يتوكأ عليها في كل الأوقات. الفنان لا يتزوّج سوى الفن، هذه كانت فلسفة أخرى من فلسفاته العديدة، جعلته يطلق امرأتين، تزوّجهما تباعاً، و لم تمكث واحدة منهما وقتاً كافياً لدحض تلك الفلسفة، ومنذ عامين حين كان في إحدى دول الجوار، يشارك بغيتاره، بلا خجل في حفل تنصيب أحد الضباط الانقلابيين، رئيساً مدى الحياة لتلك الدولة، سألته صحافية شابة، أحس من صوتها، أنها تعمل في إحدى صحف الفضائح، وأخبرته دارينا بعد ذلك، أنها خلعت قميصها وحمالة ثدييها، أثناء إجراء الحوار، متعللة بالحر الشديد:

سيد مونتي، هل لديك حياة سرية في مزرعتك التي تربّي فيها الماشية، والببغاوات؟... يقال إنك تميل لمعاشرة الدواب.

رد عليها بسرعة:

– نعم لديّ أنثى حمار، أصاحبها في تلك المزرعة.

انكمشت الفتاة دارينا، في ركنها البعيد، وتهش الهواء بيديها بلا وعي، كأنها ترى الخطر وتنازله، كانت تتراءى لها بوضوح، مناظر اللوحات الدامية التي شاهدتها في ساحة المتمرّدين، في ذلك الصباح، مناظر الجثث والعفن والمحاليل، وكل ما يجعل القلب يقفز من بين الضلوع... تفكر في عمرها القصير، وأنه انقضى بسرعة، وقبل أن تتأكد تماماً، إن كانت أنثى جديرة بأن تتزوّج وتلد وتربّي، لن يموت روادي وحده، حتى ترث بيته، ومزرعة الضواحي التي يربّي فيها الببغاوات، والكلاب الأليفة، وبعض خيول السباق. سيموتان معاً... وفي مدينة جاءاها للكسب، لا للموت.

كانت الآن تبكي، وبلا رغبة في الإجابة عن أي سؤال طرحه العازف الغارق في فوضى الخوف.

– متى تعيدوننا إلى بلادنا يا رفاق؟

صاح فجأة مخاطباً منظمي حفله المضطربين، كانت الهرمونات قد شلت أسنانه، وهزهزت شاربه الكثيف، وبدا شعره الأبيض الذي كانت تهذبه دارينا، وتلمعه بزيت الفازلين، أكثر من ثلاث مرات في اليوم، أجعد ومنكوشاً، وأسوأ شعر يحمله فنان على رأسه. غيتاره بين يديه، وتخرج منه رنات نشاز.

أسكته أحد الفرنكوفونيين، بأن قرّب من أذنه راديو صغيراً، كان مؤشره الأحمر متوقفاً عند إذاعة الكونغو الوطنية، ويذيع الأخبار الطازجة عن الفيروس: كم قتل اليوم؟...

في أيّ حيّ من أحياء كينشاسا، يتوقع أن تكون ضربته القادمة؟...

ما رأي الطبيب الذي اكتشفه؟ وهل هناك أمل في علاجه؟

– اسمع...

قال الرجل:

– هذه حال بلادك.

وسكت روادي... سكت لسانه، وسكت غيتاره القديم. وبالرغم من أنه تذكر فجأة، عامل النسيج الذي مس يده في ذلك الصباح، وكاد يقبله في رأسه، لولا أنه شم رائحة القبلة وانعطف عنها في الوقت المناسب، إلا أنه لم يسأل، خاف أن يسأل فيخبره الرفاق بمرض العامل أو موته، تاهت أفكاره، تستعرض الممكن والمستحيل معاً، الممكن في كونه ما يزال يملك لسانه، وأصابعه التي تنقر على الغيتار، والمستحيل،

في أن ينجو من ذلك الشرك. لم يكن مصاباً بالفيروس، لأن حذره أكثر مما يتوقعه أي فيروس، ولمسة أوقيانو ليده، كانت خفيفة جداً، وكان يمكن أن لا يحس بها، لولا قدرته الغريبة على الإحساس.

كانت أقنعة رياك القطنية المبطنة بعدة طبقات، قد أنتجت. أنتجها في ليلة واحدة، بمن بقي من عمال أصحاء ما زالوا يداومون على العمل، تأكد من صحتهم بنفسه، حين أخضعهم لتحقيق طويل عن الأكل والشرب والاحتاك بغيرهم في اليومين الماضيين، وبنفسه حين كان يتقافز من آلة إلى آلة في جنون. وبمساعدة الأطفال الذين كان يوظفهم برغم اللافتة التي كتبها بيده وعلقها على باب المصنع، وينكر فيها بشدة، توظيف الأطفال. حوّل بيعها إلى نشاط حيوي في الشوارع، العامرة منها، والشديدة البوار، وخفض من سعرها، حتى أضحت في متناول يد المتسولين، والخادمات، ومرضى الجذام، الذين بدوا وسيمين وأصحاء، بالمقارنة مع أولئك الذين انتهك الفيروس دمهم. وفي سبيل ترويجها وسط القبائل الوثنية، التي ما زالت تعاند الحقيقة، وتسأل النار والحطب وجذوع الأشجار، باعتبارها آلهة، أن تهبها الرحمة، وتزيل الهم، نقش على بعضها تعاويذ هو من اخترعها، وأقسم بأنها تعاويذ النجاة.

لم يكن رياك خائفاً من إيبولا، ولا غيره من الآفات، وقد نجا من قبل من كوارث محققة، أبرزها سقوطه في طائرة هليكوبتر، أيام التمرد، كانت تخص الجيش الحكومي، وغنمها، وحلق بها من دون معرفة مسبقة بقيادة الطائرات. وقبل أن تفر زوجته بصحبة سائق الشاحنة الكيني، أعدت له وجبة من لحم الغزال الطري، معبّأة بسم الفأر لكنه لم يأكلها، لسبب بسيط، هو أنه لم يكن جائعاً في ذلك اليوم. وفي

اليوم التالي وحين اكتشف الفرار المخزي لزوجته، وشم رائحة السم المختلطة بعفونة اللحم، أيقن أنه ابن حظ. ويوقن الآن بنفس التصميم، أن الفيروس المميت لن يمسه.

طرح على نفسه عدة أسئلة عن الفتك والهلاك، وأجاب عنها بسرعة، وهو يغوص في أحياء الوثنيين، بعربته الجيب، يروّج بنفسه للأقنعة ذات التعاويذ.

– الطائرة المحترقة، أم إيبولا؟

– الطائرة بالطبع.

– سم الفأر أم إيبولا؟

– سم الفأر بالطبع.

– قنبلة المولوتوف في يد محارب حكومي غبي، أم إيبولا؟

– قنبلة المولوتوف بالطبع.

ما فات على فطنته، وتعصّبه الشديد لحظه، أن إيبولا، ليس قاتلاً فردياً يمكن تفاديه لو نوى القتل، ولا تجوز مقارنته بطائرة صادف أن سقطت على شجرة متشابكة الفروع، أو طبق سام لم يؤكل لسبب أو لآخر، كان إيبولا حوله، ويرافقه في رحلته التجارية تلك، ويسخر من أقنعته وحظه، وقد نشطت الآن منه ملايين النسخ، وتتحاوم في الحيّ الراقي نسبياً، حيث يقيم الأجانب، من إنجليز وفرنسيين وغيرهم، يعملون في مجال الإغاثة، والمساعدة في التعليم، بتدريب المحليين، وإعادة الهيبة للتبشير المسيحي، وبعضهم مغامرون، موجودون بلا سبب معروف، أو رسامون، نادتهم غرابة المجتمعات البدائية، وجاؤوا ليرسموها.

9

لم يعد لويس نوا مهماً، في سياق الأحداث الكثيفة المتشابكة، التي عصفت بالمدينة في أيامها الأخيرة، وما عادت الغرفة الصغيرة، داخل المستشفى، التي ما زال يحتلها لليوم الرابع على التوالي، تمثل محوراً، جديراً بالاهتمام به، لدى أحد. وبالرغم من أن فرصة نادرة جاءته، ليصبح معجزة في المدينة، بعد أن تنفض من المرض الذي جلبه، بينما مات الآخرون، إلا أنه لم يصبح كذلك. في الواقع كانت سيرته غير عطرة بالمرة، إذا صادف وتذكره أحد في تلك المعمعة، معركة الحياة والموت التي أشعلها، وخرج منها. هو لم يخرج تماماً، لقد عفا عنه الفيروس، وربما يعود في أي لحظة وينتهكه مرة أخرى.

كان من الممكن أن تصبح سيرة حياته التي ردّدها في ما ظنه صحوة الموت، هي السيرة الأهم في المدينة، لو ردّدت في زمن آخر غير زمن إيبولا، كانت ستكون على ألسنة السكان كلهم، الذين عرفوه والذين لم يسمعوا به من قبل، وكانت ستكون عبرة لدى كل امرأة، فرحت بالزواج، وأسرعت تتلقفه، لمجرد أن عابر سبيل، اعترضها في الشارع، وطلب يدها.

بالنسبة لتينا كان الأمر سيكون مختلفاً جداً، كانت ستقاطع جارتها

التي حرضتها على إعادة الوصال مع الزوج، والسعي لإنجاب طفل، ستعيد الحجارة القديمة إلى مدخل البيت، وربما أضافت لها حجراً مسنناً، ليشق جمجمة الرأس مباشرة وينفذ إلى المخ. وربما عادت إلى العطار العربي منصور، أعادت له أعشاب الملاك، والماكا، وكف مريم، المساعدة على الخصوبة، وسمحت له أن يتحرّش بها، بلا رغبة في صدّه. الخيانة في زمن الهجر الطويل، ومرة أو مرتين في الشهر، أمر احتملته، لكن نيّة الخيانة من جديد، بعد كل ما بذلته، لم تكن لتحتملها.

لم يكن لدى تينا وقت كاف لتفعل أيّ شيء، ولا حتي لتحك رأسها، والذين راقبوا غيبوبتها الأخيرة، بعد أن هزمها إيبولا، وحضروا صحوة موت حقيقية صحتها، سمعوها تتحدث عن فأس اشترتها مرة بسوء نيّة، من أحد الحدادين، وأعادت بيعه مرة أخرى، لنفس الحداد، بعد أن صفت نيّتها. عن عدد من عيال الجيران المراهقين، الذين يلعبون كرة القدم، أو يتراكضون حفايا، في الجوار، أرادت بكل صدق، أن تغويهم، تعلمهم كيف يتحسّسون الجسد، ويستطعمون القبلة، ويتلصصون على الثوابت الأخلاقية، مهما تشابكت، وأقلعت عن الفكرة من أجل نفسها فقط. من المحتمل أنها تحدثت قليلاً عن عمليات الاغتصاب الناجحة وغير الناجحة التي تعرّضت لها في صباها، وهجرها الزوج على أثرها، لكن المراقبين غير متأكدين تماماً، الشيء المؤكد الأخير، أنها قالت:

لو لم أكن بائعة ماء في الشوارع، لوددت أن أكون راقصة في فرقة أنزارا للفنون الشعبية، برفقة خالي ماجوك.

وكان هذا الإيضاح، عكس الإيضاح الروتيني لذلك السؤال التاريخي: لو لم تكن أنت، ماذا كنت تود أن تكون؟

والإجابة التاريخية: لوددت أن أكون أنا.

أمها البالغة من العمر تسعة وخمسين عاماً، وتحمل اسم أشول، أحد أكثر الأسماء تداولاً في المنطقة، كانت بقربها حتى اللحظات الأخيرة، تمسح العرق والدم عن وجهها، وتراقب محاليل التروية، التي تعربد في العروق، بعين ذاهلة، وأبت بشدة أن ترتدي أحد أقنعة رياك الواقية، الذي أهداه إياها، الشقيق ماجوك، مبررة ذلك بأن روح زوجها المتوفى، التي تحلق باستمرار في كل الأمكنة، وتشارك العائلة أفراحها وأتراحها، أرادتهما معاً بجوارها، قالت الروح بصرامة:

– تعالي يا أشول... تعالي بصحبة تينا من فضلك، لقد اشتقت لكما أنتما الاثنتين، اشتقت لكما جداً.

الخال ماجوك، بكى من خلف قناعه الواقي، وابتل القناع كله، لا بسبب رداءة الصناعة التي أتقنها رياك برغم العجلة، ولكن من كثرة الدموع. وفي الوقت الذي حُملت فيه تينا أزاقوري، وعيناها ما تزالان مفتوحتين، ولسانها يابساً خارج حلقها، لتدفن في المقبرة الجماعية التي أعدتها السلطات المحلية، لدفن ضحايا القاتل، بجميع أعراقهم، وعقائدهم، بلا غسل ولا أكفان ولا إضاعة للوقت، قالت الأم لشقيقها: رجاءً يا ماجوك، لا تتركني أصحو صحوة الموت أبداً، إن صحوتها اخنقني، لأن في قلبي أشياء كثيرة ضدك، ولا أريدك أن تعرفها... رجاءً يا ماجوك... رجاءً.

ماجوك، الراقص في فرقة الفنون الشعبية، لم يكن فناناً بما يكفي

لتخليد ذكراه، إن كانت ثمة ذكرى ستخلد في مدينة، تمضي مسرعة إلى الموت، و لم يخرج من كل قفزاته وتلوّيه وتوتر ساقيه لأربعين عاماً، سوى بعدة ابتسامات من نساء عجائز، ذكرهن في ما يبدو أياماً خوالي، وعلبة من السيجار الكوبي المهرّب عبر الحدود، من معجب كونغولي، وشهادة تقديرية من مدير المدرسة الابتدائية، حصل عليها بعد وساطات من زعماء قبيلته، علقها في غرفته التي يقيم فيها وحيداً، بجانب قرون الثيران، وعقود الخرز، والدروع التراثية التي يستخدمها في عمله، يطالعها بنشوة كلما دخل الغرفة أو خرج. لم يكن في غرفته حتى إبريق شاي أو حلة طبخ، ولا كانت فيها ذكريات كثيرة، يسعى لاسترجاعها، كلما خلا بنفسه.

أم تينا، ليست وحدها من تملك في قلبها، أشياء ضد ماجوك، ويمكن أن تبعثرها في صحوة الموت، ولو عمل بوصيّتها، لخنق نساء الماخور كلهن، في صحوة موتهن، ويعرفن ساديته وتعذيبه للمرأة العاملة، حتى وهي تسعى لإرضائه كذباً، لخنق بائعات العرق، والمريسة، ويعرف في بيوتهن، بأنه أبشع سكران يترنّح في تلك البيوت، وكم من مرة افتعل المعارك، وأراق العديد من خامات الصنعة، لخنق زملاءه في فرقة الفنون الشعبية، وكم من مرة تعمّد أن يطرق بيوتهم، ويطيل النظر إلى حريمهم بلا حياء، ولخنق نفسه شخصياً، لأن الذي يعرفه عن نفسه، أكثر بكثير ممّا يعرفه الآخرون.

الشيء الذي استطاع الخال أن يفعله، وهو مصدوم وذاهل، هو أن يكبّل يدي أخته وساقيها، إلى سرير المرض، حين سقطت بإيبولا، وصحت صحوة موتها الحقيقية، وضع على فمها المتورم، المشتاق

للحكي البذيء، قطعة شاش كبيرة، استلفها من البيئة المحيطة، غيّر قناعه المبتل، وضع على وجهه ثلاثة أقنعة من ماركة جيمس رياك ذات التعاويذ، لأنه كان وثنياً مخلصاً لتاريخ أجداده، حمل الأخت على ظهره، ورماها بجانب ابنتها في تلك الحفرة الجماعية، وتنفض من همها، وحين عاد إلى غرفته، وتأمّل شهادة التقدير المعلقة، التي حصل عليها بجهود مضنية، لم يحبّها، كرهها، نزع الأقنعة كلها، رماها على الأرض، وداس عليها بقدميه، وبكى بحق، وكأنه سمع روح نسيبه أزاقوري المحلقة، تدعوه للمجاورة، وتبثّه الأشواق، وتذكره بأيام لعبة كرة القش التي لعباها معاً في الأزقة، والحمار الوحشي الذي اصطاداه بشقاوة من الغابة، وباعاه لتاجر عربي، وهما مراهقان، لم تحم ذاكرته أبداً في تلك المناطق التي اعتبرها مقدّسة، وشملت حياته كلها، المناطق التي توتر فيها بساقيه راقصاً «الكمبلا» وشوشونقا، والتونيجي، بتعرّجاتها المهلكة. تمدّد على سرير الخشب القديم، وأغمض عينيه.

كان الوحيد الذي مات بالسكتة القلبية في زمن يموت فيه الناس بمرض متوحش كحمّى إيبولا، لا بمرض أبله وسخيف، وبلا شهرة أو شعبية.

تحرّك لويس نوا من غرفته أخيراً، حرك يديه وقدميه بما يشبه إحماء الجسد، قبل ممارسة الرياضة، وخرج من الغرفة، وما يزال يرتدي الملاءة البيضاء المتسخة التي ربطت في جسده، ساعة أن جاء لوحة مأساوية يحملها الزملاء.

في البداية، قصد ما كان من قبل يسمّى مطعم المستشفى، ويعمل فيه طباخون من أبناء المنطقة، لا دراية حقيقية لهم بالتغذية، ولا

يفرقون في أغلب الأوقات، بين الغذاء الذي يجب أن يتناوله مرضى السرطان، وتليّف الكبد، واحتشاء عضلة القلب، وذلك الذي يتناوله الصيادون، وسائقو الشاحنات الثقيلة، وحمالو الأجولة في السوق، كان نوا جائعاً، وقد نضبت تلك الوجبات التي أحضرها بعض زملائه في العمل من بيوتهم، قبل أن ينتشر الوباء، وتفر كل روح باحثة عن سبيل خلاصها. لم يكن يعرف أن تينا سقطت، وصحت صحوة موت كافرة، ورحلت، وأمّها سقطت أيضاً، وتكفل شقيقها ماجوك بإجهاض صحوة موتها بناءً على توصيتها، ورحلت أيضاً، وماجوك الراقص غير الموهوب في فرقة الفنون الشعبية، وآخر فرد في العائلة المنكوبة، عثر عليه في غرفته، مثالاً للميت المهذب، المنطوي على حاله، بواسطة زملاء له في فرقة الفنون، لم يكونوا يزورونه عادة، وزاروه في ذلك اليوم بالذات، من أجل أن يسألوه بوصفه أكبر الراقصين سناً، إن كانت طبول الجلد والنحاس التي في عهدتهم، عرضة هي أيضاً للفناء بذلك المرض الغامض.

في المطبخ عثر نوا على علبة بسكويت من ماركة «ويفر» الإنجليزية الأصل، والمقلدة في كينشاسا بلا خبرة كبيرة في التقليد، كانت تخص ممرضة مصابة بهبوط السكر المزمن، وترفع بها سكرها، كلما بدأت تترنح، وتركتها في لحظة الرعب التي هُجر فيها المستشفى، وعلى زجاجة من خمر البن القوي، يملكها أحد الطباخين، ويبيع محتوياتها بكؤوس صغيرة للمرضي الداخليين، ومن المؤكد أنه سقط قبل أن يخفيها، لأن وجودها هكذا في مرفق حكومي، كان كفيلاً بإيقاد عشرات الأسئلة الباحثة عن أجوبة، لو بقي في المدينة مسؤولون

نافذون، يمكن أن يشكلوا لجنة تقصّي حقائق في المستقبل. لم يكن ثمة شيء آخر، غير الصراصير المقاومة للقحط المسيطر، بالقناعة، وبعض السحالي التي تستكشف الوضع من شقوقها، وتفر، وخيوط عنكبوت تتسلق السقف المدهون بالدخان. ولاحظ نوا وهو يلتهم بسكويت الممرضة، ويحتسي خمر البن برأس الزجاجة مباشرة، أن ثمة قطاً لامع العينين يراقبه من زجاج النافذة المكسور. سار في ممرات المستشفى يتلفت بحذر، ودخل عنابرها الخالية، وبنشوة الخمر الطارئة التي أنسته أنه كان في محنة، وأن البلد كله في محنة، دخل إلى غرفة الجراحة، حيث كانت تجرى العمليات بلا إمكانيات كبيرة، تأملها قليلاً، ثم أرقد وسادة متسخة عثر عليها في الغرفة، على طاولة العمليات، وشق بطنها بمشرط، وهو يقهقه، ويردّد عبارات سوقية، لا يمكن أن تخطر أبداً على بال الجراحين وهم يشقون بطناً، أو يوقفون نزفاً. كان غير نادم على فتح مرحاضه القذر في الصحوة التي ظنّها صحوة الموت، وكان مخطئاً في ظنه، ويأمل بكثير من الحذر، أن يعثر على فتاة ضائعة في أي مكان، يواصل معها مسلسل الخيانة العادي في نظره. لا يدري لماذا تذكر كانيني، فتاة الهوى الكونغولية التي أنعشته يومين كاملين، وأنسته الحزن على العشيقة الميتة، وحركت هرموناته التي وصل بها إلى أنزارا، وأعاد بها الوصال إلى بيته الأسري، لماذا ردّد بينه وبين نفسه، أنها أطعم من ألين وتينا معاً؟ ولماذا لم يحس بأنه كان من المفترض أن يموت بعد صحوته المؤلمة تلك، لعدة أسباب أهمها، أنه يعد شريكاً للقاتل الرهيب، لأنه جلبه للمدينة.

كانيني التي هي أطعم من تينا وإلينا معاً، لم تعد موجودة في أي

مكان غير خياله... وفي اليوم الذي تركها فيه، وغادر بحجة إحضار المال، لتسديد متطلبات الورقة التي قدمتها له، لم تنتظره كثيراً، ألغته بلا تفكير، وغادرت إلى شوارع أخرى، بحثاً عن آخرين لتصدقهم، ويخدعونها كما اعتادت ذلك منذ قدومها من الريف، وتوزعها في العاصمة التي ليس في قلبها ذرة عطف واحدة على يتيم، وبالأحرى ليس على ضائعة مثلها. هو يتذكرها الآن بوضوح، يتذكر ملاحتها جيداً، يقارنها بأخريين، ولو جلس للرسم بأدنى موهبة، لرسمها كاملة، في ساعة العري وتبجّح اللذة، وهي لن تتذكره، أولاً، لأن ذاكرات بنات الهوى تشبه كثيراً ذاكرات الديكتاتوريين، ذاكرات ملعونة ونجسة، وثانياً، لأنها ماتت، في ذلك اليوم الذي خرجت تتسكع فيه، بحثاً عن غريب جديد. لم تمت من إيبولا، لأن الفيروس كان يتناسل فيها ببطء وتروّ، ولم يقرر إسقاطها بعد، ولكن في أثناء تأدية عملها.

في أحد تلك الشوارع السامة التي لا تشبه شارع جمادي أحمد الوقور، حيث التقت لويس نوا، استوقفها رجل، سألها عن اسمها كالعادة في بداية المراودة عن النفس، وأعطته اسماً آخر غير كانيني، كعادة أمثالها حين يسألن، وربما تعطيه الاسم الحقيقي حين تحدث الثقة بعد ذلك، وهذا ما لم يكن يحدث أبداً، لا توجد ثقة في مهنة بيع الجسد، لا توجد عند بائع أو مشتر. كانت ورقة الديون التي فر بسببها نوا، موجودة في حقيبة يدها ما تزال، وكانت الحقيبة خالية إلا من أدوات الزينة الرخيصة التي لا بد منها في مهنة تعتمد على زينة الوجه أولاً، وبعد ذلك يأتي عنفوان الجسد، وتأتي الخلاعة وغيرها.

مؤكد أن كانيني لم يكن اسمها الحقيقي، الاسم الذي انتهكت به في مزرعة الضواحي، بواسطة ساسة الخيل وملاكها، ومراهقي المزارع المجاورة، لكنه الاسم الذي يرضيها في العاصمة، وهي لم تعطه حتى للويس نوا، لكنه انتزعه منها انتزاعاً، حين أمضى معها زمناً أكثر مما ينبغي. قالت للغريب اسمي دياني المرحة، وضحكت، مؤكدة ما تحمله من مرح، وبدا لها بقامته المنسّقة، ووجهه المبتسم بلا شاربين، وحلقة المعدن الفضية التي يضعها على ثقب في أذنه اليسرى، قوّاداً متمكناً، أكثر منه مشترياً للمتعة. ابتهجت ولطالما بحثت طوال العام الذي قضته في كينشاسا، عن وسطاء يسهّلون مهنتها، ولم تعثر على أحد قط. كانت صاحبات البيوت المعروفة، التي طرقتها، يطرين على جمالها وفتنتها، وعمرها الغض، ثم يعتذرن عن قبولها في بيوتهن، بحجة رواج المهنة واكتظاظ البيوت بالأنفاس. والرجال المتنفذون، الذين يديرون الهوى من بعيد، ووصلت إلى بعضهم بالفعل، لم تستهوهم، حيث كانوا يفضلون العذراوات اللائي يشبهن الملصقات السياحية. ابتهجت حين أمسك الغريب بيدها، جس نبضها في تأنّ، وأمسك بالعروق النابضة في رقبتها، تحسّسها بوله، وطلب منها أن تغتسل وتتطهر جيداً، لأنها ستموت اليوم على يديه ويدي أصدقاء ينتظرون في مكان قريب. ضحكت، كانت عبارة الموت على يدي، عبارة مألوفة في تلك التجارة، يردّدها الفحول، وفاقدو النخوة معاً، وفي أغلب الأحيان بلا معنى، حين تنتهي المساومة، ويبدأ التطبيق الفعلي. ركضت إلى مرحاض عام في الشارع، اغتسلت جيداً وتطهرت، وتأكدت من وضع حاجبيها، والرموش الصناعية في عينيها، وأحمر

الشفاه الرخيص، ورافقته، حيث قادها إلى مستنقع معتم خلف الشوارع العامة، وهناك شاهدت رجالاً ونساءً منكوشي الشعر وذاهلين، وتحلقوا حولها في هوس حين دخلت. صرخت، وكانت صرخة متأخرة جداً.

لقد كانت كانيني فتاة الريف الضائعة، ضحية جديدة، تضاف إلى ضحايا عديدات متن بلا معنى لأن ثمة أناساً شاذين في الدنيا، يقتلون الناس بلا معنى. وربما لو عاشت وسقطت حتى بإيبولا، لما ماتت هكذا، مقطعة إلى قطع صغيرة، ستلقى في ما بعد في أي مزبلة.

10

خرج لويس نوا من المستشفى، وهو ما يزال يرتدي القميص الخاص بالمرضى الداخليين، والذي كان يغطي نصفه الأعلى، بينما ترك النصف الأسفل، عارياً، مكسواً بالشعر، وبقايا لسعات البعوض الاستوائي، والجروح التي كانت من صنع إيبولا وتراجعت.

كانت الشوارع يابسة، ومحمومة هي أيضاً بهجير أغسطس، ولا رائحة للمطر في طقس استوائي، من المفترض أن يكون ممطراً بلا توقف طوال العام. و لم تكن خالية من الناس تماماً، كان ثمة مارة عديدون، يمرون مسرعين وقد ارتدوا أقنعة جيمس رياك على وجوههم، ثمة لوحات مأساوية، لا يحملها أحد ولكن أصحابها يزحفون في اتجاه الساحة الكبيرة، حيث يوجد أمل في العثور على نجدة، لم ينتبه إلى أنه كان حافياً، وأن هجير الطريق يقرض قدميه، وكان قد احتسى زجاجة خمر البن كلها، وكانت كفيلة بالقضاء على أي إحساس، بما في ذلك إحساس الروح المذنبة.

الآن اختفت من تخيّلاته، صورة الفتاة كانيني، الصورة العارية، والمحتشمة، اختفت صور تينا وإلينا، وأمها والخال ماجوك، والكيني أنامي أوقيانو، وبرقت صورة صاحب العمل جيمس رياك، الصورة

الأكثر بذاءة من حقيقتها، تلك التي تمنى نوا وتمنى زملاؤه العمال أن يرسموها طوال سني خدمتهم، و لم يستطيعوا، في ذهنه، تلك اللحظة، كان رياك مربوطاً إلى إحدى أشجار الباباي الوارفة، وفي صدره مئة طعنة سكين. لم يكن نوا قاتلاً، ولا حمل في داخله إحساس قاتل من قبل، وقد تهيّأت له عشرات الفرص ليقتل فأراً متسللاً إلى البيت، أو جرواً مزعجاً يتمسح بالأقدام، ويثير القشعريرة، أو قط الجيران الذي كان يستولي أحياناً على عشائه، بلا وجه حق، و لم يغتنمها، وكان حتى تلك اللحظة، لا يعرف أن رياك قد فصله من عمله، وأبى أن يحمل على عربته القوية لإسعافه، فقد سقط قبل أن يعرف، و لم تأت فرصة في أيام مرضه الحرجة، وفي زمن إيبولا الذي أضاع الكيني أوقيانو، ليعرف ذلك، كأنه إحساس خاص، هبط عليه في شكل وحي، ليتحول إلى قاتل تخيّلي، كأن الخمر القوي، جرجره إلى خيالات القتلة، ويمكن جداً أن يكون المرض نفسه، قد آذى بعضاً من خلايا دماغه، ليجعله هكذا بلا عقل، ولا تفاعل، ويرى الناس أشباه موتى في الطريق، ولا يندهش. التقط عدة أقنعة وجدها في الطريق، تفحصها جيداً، وتأكد خلوها من الدم والبصاق، ورائحة الزفارة الوسخة التي خبرها حين شم نفسه قبل أن يسقط، فلم يعثر على شيء، ارتداها كلها، ويعرف قيمتها بالرغم من أنه يرتديها لأول مرة، وتبع الراكضين إلى حيث لا يدري أين يركضون، وانتهت الرحلة إلى ساحة إيبولا.

في تلك الأثناء كانت السلطات في إقليم الجنوب كلها قد استيقظت. أيقظها النقر الكثيف على أجهزة الراديو واللاسلكي، التي يملكها الأجانب الأوروبيون، العاملون في المنطقة، ويستخدمونها

حين تكون الحاجة إليها ملحة، حقيقة أن الفيروس تحاوم كثيراً في حيّ الأجانب، تحاوم في أجساد بائعات الحليب الطازج، اللائي يقمن بدورات صباحية هناك، ويبعن الكثير، في دماء عمال مجارٍ، ربما أصلحوا خللاً، وسباكين دخلوا لإيقاف تسرّب في الماء، كان يحدث، وربما التقطه ذلك القس المتواضع جداً، حين ذهب إلى الصلاة في كنيسة البلدة الوحيدة، من أجل أرواح الضحايا، وقبل بعض المحليين المتدينين يده، لكن من غير المؤكد أن ذلك قد حدث، وأقنعة رياك كانت تغطي وجهه، وقد أضاف قفازين سميكين، ليده التي يعرف أنها عرضة للتقبيل. الآن أهل الحيّ جميعهم يعرفون، كأنهم كانوا يعرفون من زمن أن ذلك سيحدث، لأن الحيطة كانت موجودة في كل شيء، الحدائق المثمرة بالخضروات التي زرعوها بأيديهم، وسوّروها بالأسلاك الشائكة، ولن يقدر على تلويثها أحد، أفران الخبز التي تنتج بجهود نسائهم الصلدات اللائي يستطعن التكيّف في أي طقس ومكان، وأكداس المعلبات التي استوردوها من بلادهم، بمدد صلاحية طويلة، وأبقوها داخل مخازن واسعة ونظيفة في البيوت.

لن يجوع أجنبي في أنزارا، مهما طال زمن إيبولا، ومن المستبعد جداً، أن يموت بإيبولا نفسه.

الرعب له قانونه، وفي زمن الكوارث، لا يصبح الرعب طبقياً، تحمله الوجوه الخشنة والمتعبة فقط، ولكن تحمله أيضاً، وجوه أكثر البشر رقياً وتحصناً.

الرعب في الحيّ الأجنبي الراقي، صحيح هو رعب، نفس الأحرف الثلاثة التي تكون الكلمة، نفس المذاق في الفم، والرائحة في

الأنف، والهستيريا في السلوك ولكن يختلف في تقصّي التبعات... هنا سيكون التساؤل أكثر عمقاً وفلسفة:

ماذا لو استمر الوضع طويلاً، وضاعت على أبنائنا الأذكياء، سنة تعليمية خصبة؟...

ماذا يحدث لسيقاننا، لو لم تتريّض رياضات الصباح والمساء تفادياً للجلطة؟

وماذا لو ارتفع الكوليسترول في الدم، وتسبّب بضيق الأوعية الدموية؟

تساؤلات جماعية، خطرت على أذهان سكان ذلك الحيّ، وأرعبتهم، وتساؤلات خاصة جداً خطرت في بعض البيوت، المرأة الشابة الجميلة مثلاً، حين تضطر إلى ملازمة البيت، امرأة بيت عادية، لا تخرج في الطرق، وتبعثر الشعر والعطر، ويتبعها المحليون فاغرو الأفواه، هاوي الصيد العجوز، حين تصدأ بندقيته، من دون أن تدخل رصاصة في قلب وعل أو غزال، وهواة جمع الطوابع، حين لا يستطيعون الوصول إلى مبنى البريد، والبحث وسط الرسائل الضائعة، عن طابع نادر.

وأخيراً، ذلك الرعب العلمي، المبني على أسس راسخة، إن فيروس إيبولا المسيطر على الوضع، قد لا يكون هو نفسه الذي اكتشفه الطبيب الكونغولي ماشولا، ويجرى البحث عن علاج له، أو لقاح يفسده، ولكن سلالة أخرى، تحوّرت، وتخصّصت في سكان أنزارا وحدهم.

الرعب في الحدود الكونغولية أيضاً شديد الوطأة، وقد تجمهر الفارون من الكونغو، بمن فيهم الساحر الكبير، جمادي أحمد، يتسوّلون الرحمة من حراس الحدود الذين لم يسمعوا بالرحمة كثيراً،

أو يقرأوها، في تلك الأوامر التي وصلت إليهم من رؤسائهم... كانوا مسلحين وصلدين، ورابطي جأش بصورة نادرة، لا يهابون الفيروس لأن التعليمات أمرتهم أن لا يهابوه، وقتلوا في زخة رصاص واحدة، كل الحمير التي جاءت بالمفزوعين إلى حدودهم، وثقبوا في زخة أخرى، جميع إطارات عربات الجيب، والشاحنات التي كانت تحمل الفزع الميسور، و لم تكن ثمة طريقة لاستهداف الذين أتوا على أقدامهم، إلا بقتلهم شخصياً، وهذا كان الخيار الأخير.

كان جمادي أحمد يملك برغم فزعه، شيئاً من الروح العسكرية، بعض اللغة، التي يعرفها من أيام تجنيده في الجيش الكونغولي، و لم تمح من ذاكرته تماماً، كان يعرف أن الجنود فقراء، ومربوطون بحبل التبعية الطويل الذي ينتهي عند جنرال جالس على مكتب فخم، بعيد عن ترنّحات إيبولا، أو يتسلى الآن بمراقبة الباريسيات على مقهى الكارديدور، في شارع الشانزليزيه. وربما يخطط لانقلاب عسكري مذهل، يطيح قوى التخلف والرجعية، بقوى تخلف ورجعية بديلة. يعرف جمادي أن وضعه كساحر قديم ومعروف، حتى للخارجين على القانون، الذين يقضون عقوبات في السجون، وربات البيوت، اللائي يذكرن اسمه كثيراً في تخويف العيال الأشقياء، لن يفيده كثيراً في ذلك الموقف، ويقف بجانبه عدد من المرموقين، يستجدون الرحمة مثله. كانت عبارته المنقوشة بالأحمر على صندوق أدواته، وتوقع المراقبون أن تشتهر بشدة، قد ضاعت، أضاعها إيبولا، وحوّلها إلى عبارة هامشية بلهاء، شبيهة بالتي يكتبها الأطفال والسذج. لن يغامر جمادي بإضاعة الوقت في ابتلاع الخيوط وشفرات الحلاقة، في تلك

الحدود اليابسة، ولن يخرج من كيسه أرنبه البري، وحمامته البيضاء، والدجاجة المسكينة، التي يستخدمها في الحيل، ويأتي بغيرها، كلما هزلت أو ماتت، ليعرّضها جميعاً للرصاص. تقدّم من أحد الجنود، وكان ذا لحية بيضاء، واللحية البيضاء لا تنبت في أفريقيا، إلا إذا كان العمر قد تقدم بنحو مرير، وتكوّمت كثير من الحكمة والذكريات، لم يعثر على أي رتبة على كتفه، وأكتف الآخرين، واستغرب من ذلك القطيع الموحد، لكنه استمر مع ذلك:

– سيدي

قال جمادي بصوته العادي، صوته الذي يستخدمه في البيت، أو عند الجيران، أو يشتري به الجبن من دكان الحيّ الذي يسكنه، وهو بالقطع، لا يشبه صوت الإثارة المجلجل، الذي يستخدمه في شارع زومبي، كلما قدّم حيلة مستهلكة...

– سيدي... أريد أن أخاطب الجنرال، قائد الكتيبة إذا سمحت.

لم يبدُ أن الجندي أرخى سلاحه، أو حتى ألقى إليه بنظرة، لأنه كان يسمع صوته الخشن، يأتيه من أعلى، وانتبه لتوّه في تلك اللحظة، إلى أنه قصير بشكل مخزٍ، واستغرب كيف جندوه في الجيش في ذلك الزمان البعيد، وكيف سمحوا له بأن يخوض تلك الحروب الأهلية كلها، محاطاً بالجماجم والدم، بمثل ذلك القصر، قبل أن يتعلم الحيل، ويسرّح من الجيش...

– كلنا قادة لهذه الكتيبة، نتناوب قيادتها كل شهر... كلنا رتبة واحدة... انتهى... عد إلى موقعك.

الكلام حاسم جداً، ولو صح، فقد عثر الساحر على ثغرة في النظام

العسكري، يهديها لأصدقائه الشيوعيين، عشاق الفقر والسجون، الذين طالما نظّروا في التاريخ والجغرافيا، والفلسفة وعلم الأديان، و لم يكتبوا عن الجيش كلمة شكر أو ذم واحدة، ذلك لو لم يمت بإيبولا، و لم يمت الأصدقاء الشيوعيون... انظروا... كتيبة كلها جنود... يصبحون قادة كل شهر... انظروا. ليس في وسعه أن يغامر بأكثر ممّا غامر به، لذلك تراجع بهدوء.

كان المرعوبون جميعهم، قد افترشوا الأرض الصلبة، أمامهم تمتد مساحة قحط لئيمة، وخلفها بعض الخضرة المبثرة، ويستطيعون أن يشاهدوا ثكنات الجند، مبعثرة، وعلى أبوابها ونوافذها، علق الصدأ والغبار. كان لديهم أكل وشرب، وقوارير خمر أيضاً من أجل المسرّة والنسيان، وربما تختبئ خلف تلك الوجوه النسائية المفزوعة، أجساد بنات هوى معتقات سيجرّبن العمل الدنيء تحت وطأة الرعب، ومهما كان الرعب مسيطراً وحقيقياً، فلا بد من زاد، ومن أمل أيضاً، ومن انتظار ربما يقصر أو يطول.

المؤسف أن الكونغوليين حتى لو استخدموا الرحمة أو غيرها من الأساليب، وسمحوا لجمادي وغيره من الفارين، بالتسرب إلى جنوب السودان، فإن القصة لن تكتمل، ذلك أن حراس الحدود في الطرف الذي يقصدونه، تلقوا أوامرهم الخاصة، واللئيمة جداً، لا أحد يدخل ولا أحد يخرج، ليس في حدود الكونغو فقط، ولكن حتى في الحدود الداخلية التي تربط أنزارا ببقية مدن الجنوب. ولو فرض أنهم أيضاً سمحوا بالتسرب هنا، في هذه البقعة اليائسة، فالقصة ما تزال بحاجة إلى تدقيق.

على صعيد الموسيقى، والحفل الذي سمّاه روادي مونتي، حفل الشؤم، واشتعلت غدته الدرقية بسببه، حد الخطر، وكان يمكن أن تميته، لولا عقاقيره المهدئة التي ناولته إياها الفتاة دارينا بحذر، وتحس بهبوط دورتها الشهرية قبل موعدها بأسابيع، كان الأمر في غاية الرداءة، غاب أحد الفرنكوفونيين، عدة ساعات، تعقب فيها أطفال الشوارع المروّجين للأقنعة، غير عابئين بالموت، وعاد بعشرين قناعاً واقياً، وزعها على الجميع، وأوصى رياك الذي صادفه يتجول بعربته، وسط الخطر، وبلا قناع من أقنعته، معتمداً على حظه، أن يسرع من أجله، بإنتاج قفازات تلائم أيدي العازفين الموسيقيين، وغطاء للرأس، يناسب شعراً منكوشاً، وأجعد، ولو أمكن أن يخترع حذاءً من القطن قياس ثمانية وأربعين، فليفعل، لأن في ضيافته لعنة، لم يصادف مثلها أبداً من قبل.

الحقيقة أن روادي لم يكن ينطلق في هياجه من رغبته الخاصة في الهياج، ولكن بفعل هرمون (الثايروكسين) المقرف، الذي نشط فيه كل عضلة وكل خلية، بدا غير متنازل أبداً عن تغيير البيت الوضيع الذي يقيم فيه، ببيت محمي جيداً، ومؤسس بحيث إن النملة لو دبّت على أرضه لسمعها، كان لا يفرق في تلك اللحظة من الرعب الخاص جداً، بين الحماية من خطر السرقة والإجرام، والخطر المتحاوم في الهواء، يقهقه، ويتلاعب بالأرواح، ولن يمنعه أي عائق، ولأن الفرنكوفونيين اقتنعوا بأن لا جدوى من ادّعاء الصمم، إضافة إلى أن ما حققوه من مكاسب في حفله، كانت مجرد مكاسب بلا قيمة في زمن انعدام القيمة، نقلوه إلى بيت آخر، كان مملوكاً لأحد التجار العرب،

و لم يمانع في تأجيره، وبالسعر الذي طلبه، برغم كل ما يحدث في المدينة. صابون الإمبريال لم يكن من ضمن تجارة أنزارا، حتى يوفروه، وشامبو غسيل الشعر، كان موجوداً، ولكن من نوع رخيص، تقبّله روادي صاغراً.

وعد رياك، منظم الحفل الفرنكوفوني، أن يسلمه القفازات وغطاء الرأس في أقرب فرصة، لكن حذاء القطن لم يكن من بين منتجاته القديمة، ولا تلك التي استحدثها في زمن إيبولا، ولن يستطيع رسمه، لأن قواه الذهنية، استهلكت في رسم الأقنعة، وحتى لو رسمه، فليس ثمة آلة ميكانيكية تستطيع صنعه.

11

وصل لويس نوا إلى الساحة المكتظة بالموت، وشبه الموت، والحياة أيضاً، تلك الممثلة في لابسي الأقنعة المتطوعين، الذين يساعدون الطبيب لوثر المرهق، الذي يعمل بكد منذ عدة أيام، يساعده بعض الذين عفا عنهم إيبولا، وجاؤوا بخبراتهم في شمّ الموت، ومعانقة الحياة من جديد، يعلمون المتضررين، كيف يموتون إن قدّر لهم أن يموتوا، وكيف يعودون إلى الحياة، إن قدّر لهم أن يعودوا، وإضافة إلى ما اكتسبوه من خبرة في صحوات الموت الكاذبة، كانوا ينتبهون بشدة لمن أفاق من المرضى، يحللون مفردات صحوته، وتقاطيع وجهه، ويزغردون بهستيريا حين يكتشفون أنها صحوة كاذبة.

سمعت همهمات كثيرة تسري في المكان، بأن أصداء الوباء وفداحته، قد وصلت إلى الذين يجب أن يعرفوها، وأن فرقاً طبية متخصصة، ستأتي بطائرات الهليكوبتر، من مدينة جوبا، عاصمة الإقليم، ومن الخرطوم عاصمة البلاد، والدول المتقدمة أيضاً، وأن الذي سيعيش حتى يرى تلك الانفراجة الكبرى، عليه أن لا ينسى من ضحّوا بأرواحهم، حتى تحدث.

لحظة وصوله إلى الساحة، كان ثمة اضطراب يحدث، فقد أكد

شهود عديدون أن الحفرة الجماعية التي تحوي معظم الذين سقطوا وأكملوا صحوة موتهم، وماتوا في النهاية، ليست خالصة للموتى وحدهم، أكدوا أن فيها أرواحاً تصرخ، وتطلب النجاة بإلحاح، ولم يملك أحد جرأة طارئة ليمد تلك النجاة. بالنسبة للطبيب لوثر، فإن للمهنة قواعد محددة، وهي أن يعمل على محاولة إنقاذ الذين تحت يده، ولن يسعى إلى حفرة ملوّثة، حتى لو أنقذ الأرواح الحيّة التي تصرخ فيها، فهو وقت محدود، لأن إيبولا يمتلكها، ويعيش فيها بكل جنونه، ولن يسمح للخارجين منها، بالبقاء أحياءً حتى موت جديد، يأتي في المستقبل.

بقي لوثر يعمل، والمتطوّعون الذين يساعدونه يعملون، والشهود الذين حملوا الخبر، باعتباره خبراً رئيسياً، يثيرون الاضطراب، ويستخدمون كلمة الإنسانية، مقرونة بالسباب والطعن في شرفها، لأول مرة في تاريخ تلك الكلمة التي تجل وتعظم في كل بقعة من الكرة الأرضية.

تطلع نوا إلى كل ذلك. تطلع بعمق، وعرف أن الذين ما زالوا يملكون عقولهم، قد ميّزوه، لا بسبب وجهه، فقد غطاه بأقنعة جيمس رياك، ولكن بسبب القميص الطبي المتسخ، الذي يكشف نصفه الأسفل، يبرزه عارياً ومكسواً بالشعر. هو أيضاً عرف الكثيرين، سوى من المرضى أو الذين يحاولون مساعدتهم، عرف إحدى الجارات وكانت تعمل في صناعة الجبن من حليب بهائمها، وبيعه، وكانت في صحوة موتها، تسبّ الدنيا كلها، وتؤكد أنها رأت عورة السلطان «كجك»، حين تحرّش بها جنسياً، أثناء شرائه الحليب من بيتها، وكان السلطان

كجك من الوجوه المحترمة والصارمة جداً، في المدينة، ولا يتوقع أحد مهما اختلف معه في الرأي أو كرهه، أن تكون حتى أيّ من زوجاته العشر، قد رأت تلك العورة، عرف أحد زملائه في مصنع رياك، وكان المرشح التالي المفترض أن يشمله تكريم رجل العام، في السنة التالية. لم يسمعه يتحدث، لأنه استيقظ منذ فترة، وأكمل الطقس المعتاد، ورحل والآن سيغادر إلى الحفرة الكبيرة، ليلحق ببقية الراحلين... ومن أهم الذين عرفهم، سائق حافلة الركاب التي جاءت به من كينشاسا، وكان من مواطني المدينة، والعطار العربي منصور، المعروف لكل رجال المدينة، بأنه الأب الحقيقي، لعدة مواليد من نساء جنوبيات، ولدن بلا رباط مقدس، وكان نفسه الذي زوّد تينا بخامات الخصوبة، وتحرّش بها. وكان جلياً أنه سقط في حفرة من حفر الإثارة الملوّثة، وتحرّش بامرأة مصابة. لم يشر أحد إلى نوا، باعتباره مذنباً، وشريكاً في الإثم، ولم يسمع كلمة نابية واحدة في حقه، وحين طلب منه أحد المتطوعين أن يقترب، ويشارك في العمل، بوصفه أول من أصيب وأول من مات، وأول من عاد من الموت بكامل قواه العقلية، تنبّه فجأة إلى أن ذلك قد حدث بالفعل، تسرب خمر البن من رأسه فجأة، كأن الساحة المكتظة اقتلعته، صرخ:

– أين تينا؟

ركض في وسط الخراب، ومؤشرات الخراب التي تسعى لتقاوم كل تلك الأيدي العاملة، وتصبح خراباً حقيقياً، ولم يعثر عليها، ليست هذه المرأة، فهي أضخم، ليست هذه، إنها بشعة، ليست هذه، ولا هذه، ولا هذه.

أخبروه بأمر الحفرة الكبيرة التي ربما تحوي زوجتة حية أو ميتة، وكان قد سمع الخبر، من الشهود المضطربين، و لم يستوعبه كاملاً بسبب النشوة، و لم يصدق أن المرأة عموماً، لا زوجته بالتحديد، يمكن أن تصبح يوماً بلا طعم. لم يذهب إلى الحفرة كما هو مفترض، وركض إلى بيته بتلك العافية التي تركها له إيبولا، وكان ينوي استخدامها في الخيانة.

كان باب البيت مفتوحاً، وما تزال أثار جسد تينا حين تكومت منتحبة، أمام الكيني أوقيانو، موجودة، مياه الغسيل القذرة، جفت ونبت في موضعها العشب، لم تكن ثمة حجارة تعوق الدخول، وترج الرأس، وكانت ملاءة العذرية الحمراء مفروشة على السرير، وعلى طاولة من الخشب، بقرب السرير، عدة أكياس من البلاستيك، ممتلئة بأعشاب الملاك، والماكا، وكف مريم، وأمام طاولة الزينة بمرآتها المشققة، مساحيق تجميل ومرطبات وجه، وإصبع روج.

الآن لويس نوا ليس خائناً بالمرة، زلزلته الذكرى بطريقة لم يتوقعها على الإطلاق، ومرت في خياله كل صور الماضي، المنتصرة منها والتي انهزمت، الغالية والرخيصة، البلهاء والراجحة العقل، تذكر ست عشرة فتاة ترنّح في حبهن وهو مراهق، واستجابت له واحدة نصف عمياء، ما لبثت أن سلمته الهجر على طبق من الاعتذار، تذكر قسمه أن يتزوج بأول فتاة مبتسمة في الطريق، وكانت تينا ترتدي سروال أمها المثقوب، وتبتسم، تذكر المغص والحمى، وليالي كان فيها منضبطاً للغاية، وأخرى، أخرق يستحق عقوبة الإعدام.

في شبابه كان الناس إما صيادين، يهزمون الغابة ويحلون معضلاتها

بجدارة، وإما متمردين على السلطة المركزية، يزدرون الدساتير غير المنصفة، ويخترعون البطولات التي تدخل في المآثر الشعبية، وقد كان خادماً عند الفرنسيين، يرسلونه بكل برود إلى السوق، أو يجعلونه ينظف مؤخرة طفل، وفي أحسن الأحوال، يسمحون له أن يندهش، حين يتأمل لوحات مانيه، وجيوفاني، المعلقة على الجدران. كل ما تخيّلته الجارة المحرّضة، وهي تخوض في سيرته، بلا وجه حق، كان للأسف صحيحاً، فقد ألقته أمه بالفعل في المزابل، كي يأكل، وإخوته كانوا بالفعل قطاع طرق وعرين، ونزحوا إلى الخرطوم منذ سنوات، لأنهم سمعوا بأنها تكسب الذهب...

في ذلك الصباح، سيبكي نوا تاريخه كله، ابتداءً من صرخته كمولود جديد على الدنيا، وانتهاءً برقدته على ملاءة العذرية الحمراء في سرير الخشب القديم الباهت. سيتأكد له تماماً أن تينا لم تكن سيئة جداً، وأمها الشول، لم تكن تحمل له ضغينة، كبيرة كانت أو صغيرة، وخالها ماجوك الراقص في فرقة الفنون، لم يكن سوى فنان ناقص، سعى للكمال بالزندقة و لم ينله. سيتأكد له، أن الكيني أنامي أوقيانو، يستحق منصب رئيس عمال، لأنه كان مبتكراً، وحاذقاً وشديد الإخلاص لعمله، وجيمس رياك، يستحق أن يموت، لأنه لم ينصف أحداً طوال حياته، وحربه المقدسة التي خاضها في الغابات، كانت حرب سلطوي مجنون، لو انتصر فيها، وارتقى حاكماً للبلاد كلها كما كان يأمل، لما استثنى أحداً من مشانقه.

في تلك اللحظة، عاودته رغبة القاتل التخيّلي، وتمنى لو امتلك قدرة تحويلها إلى واقع، وسبق إيبولا الذي يمتلك وحده لغة الموت

الحقيقية، في قتل رياك، وإحراق مصنعه الحقير.

أفاق على صوت باب بيته، يصر معلناً قدوم زائر، واستغرب أن يكون ثمة زوار في هذا الوقت العصيب. لو كان وقتاً عادياً، لنحرت له الذبائح بمناسبة نجاته، ولجاءه الزوار بغزارة يهنئون.

12

صاحب المصنع، جيمس رياك، مجنون بلا شك.

هذا هو انطباع إيبولا القاتل، الذي كوّنه عنه، منذ أول وهلة تحاوم فيها حوله، وبالرغم من ذلك لم يستطع إصابته حتى الآن.

هو نفسه، انطباع البلدة كلها منذ أيام التمرد القديمة، وانطباع الزوجة التي فرت بصحبة سائق شاحنة من كينيا، وانطباع لويس نوا الذي يواجهه الآن، بعد أن اقتحم بيته وذكرياته، وأطار من رأسه كل خيالات أو ذكريات، كانت تتناسل في ذهنه.

المفاجأة أن الاقتحام لم يكن شرساً، ولا متغطرساً، على العكس، كان ناعماً، وبهدوء شديد، ووجه ضاحك، لم ير نوا، رياك يرتديه أبداً من قبل.

لقد فهم جيمس رياك، بعد جهود مضنية من فيروس إيبولا، في القتل والتشريد، وتفرقة المرأة عن زوجها، والجارة عن جارتها اللصيقة، والأبناء عن ذويهم، والعشاق عن خلواتهم المحبّبة، أن كلمة ابن الحظ التي ظل يتداولها في حق نفسه، زمناً طويلاً، ليست على حقيقتها أحياناً، بدت له أشبه بكلمة ابن زانية، وابن زقاق وسخ، وابن كلب ضال، واعترف بينه وبين نفسه، بأن الشجرة التي سقطت عليها

طائرته المنكوبة، كانت قوية، وذات أفرع متشابكة، وكان لا بد أن تمسك بالطائرة، مانعة ارتطامها بالأرض. اعترف بأن سمّ الفأر الذي زيّنت به الزوجة الهاربة، لحم الغزال الطري، ليس سيئاً تماماً، وكان سينكشف من أول تذوق، وقنبلة المولوتوف التي في يد عسكري غبي، يمكن تلافيها بقليل من المراوغة.

في ذلك الصباح، دخل مصنعه الذي أصبح حياته كلها، منذ أن صالح السلطات، كما يدخل كل يوم، اتجه إلى مكتبه، أمسك بدفتر الغياب والحضور، الذي يسجل فيه العمال ساعات حضورهم مبكراً جداً، و لم يجد اسماً واحداً قد حضر، ركض إلى صالة آلاته، مؤملاً أن يسمع هديراً ما، فلم يسمع. كانت الآلات كلها خامدة، وقد عرفت بعض القطط المشردة، كيف تتسلقها، وتتبرز على بعض الأثواب التي كانت ما تزال عالقة فيها، لم يكتمل إنتاجها بعد. غضب رياك بشدة، وبرغم غضبه، لم تحم شبهة الإضراب في ذهنه، كان من الفطنة في تلك اللحظة، بحيث يتوقع حتى أن تقوم القيامة، في زمن مثل زمن إيبولا. كان قد وعد أحد منظمي حفل روادي مونتي، أن ينتج قفازات خاصة تناسب أصابع الموسيقيين، وغطاء شعر لفنان منكوش الشعر، ورسم النماذج، ولا بد من إنتاجها فوراً، لأنه تسلّم ثمنها مقدماً.

فجأة توقف بصره عند الآلة القديمة، تلك التي كان يديرها لويس نوا لسنوات، ويمدّد عمرها بمهارة لم يستطع أن يعرف من أين اكتسبها، و لم يسأله قط، وكان على وشك أن يزيلها، يستبدلها بواحدة جديدة، ما تزال رابضة في أحد الأركان، أفشلت هبة إيبولا على المدينة، مشروع

تدشينها. إنها الآلة التي محت اسم نوا من قوائم عمال المصنع، حتى قبل أن يسقط بإيبولا، لكن نوا لم يمت.

كانت الآلة القديمة ما تزال ثابتة في مكانها، وتشبه كل الآلات الأخرى التي في الخدمة، وفي آخر مرة أدارها نوا قبل أن يسافر إلى كينشاسا، ويجلب الشر، دارت وأنتجت قمصاناً وسراويل، وشالات بدائية، لكن مقنعة. اقترب من الآلة الخامدة، حيّاها بتحية عسكرية صلدة، سمّاها الآلة الجنرال، وأقسم أمامها، بكثير من التشنج، إنها ستظل باقية في مكانها إلى الأبد، وستعود للعمل حالاً، والذي سيعيدها هو لويس نوا شخصياً. تركها بعد تلك المبالغة، وأدار آلة أخرى أفضل حالاً، عمل فيها ساعة، حتى تسلّم واقيات المغني اللعينة، لفها في كيس من الورق، يحمل شعار مصنعه، وتوغل في شوارع أنزارا، لا يلتفت إلى لوحات المأساة، التي يشاهدها تزحف أو ترسمها السواعد. لقد عرف بموت أنامي أوقيانو، وكثيرين غيره، ممن شكلوا شريان حياة دائماً، عاش به المصنع الصغير، عرف أن أوقيانو صحا صحوة موت في غاية الرداءة، خصّصها كلها لتعريته هو جيمس رياك، واصفاً كل شيء رديء فيه، ولا أي شيء إيجابي، كأن لا شيء إيجابياً فيه، ويزعم أن من إيجابياته، أن جعل في تلك البلدة المشلولة، مصنعاً يتحرك وينتج، ويصرف رواتب للعاملين. عرف أن أوقيانو كان يتحدث بثقة، وصوت واضح، وقبل أن يموت بدقائق فقط، وصف امرأة كان يغشاها في غياب زوجها الشرس، وصفها عارية، وحين ترتدي العقود اللماعة، وتمشط شعرها، وحين تحك أصابع قدميها بالحجر، محاولة أن تزيل أعشاش الفطريات التي تسكن بين أصابعها، لم يقل

هي هانا زوجة جيمس رياك، لكن الوصف الذي التقطه رياك كان كافياً للغاية...

عاشقة الكينيين التافهة...

كان رياك يردّد.

في كثير من الأيام فكر أن يتعقبها، إلى حيث غطست في أحد جحور نيروبي، وانقطع سائق الشاحنة الذي فرّت معه عن المجيء إلى أنزارا، يرسل لها قتلة من صنف بديع، يحولونها في دقائق معدودة، إلى واحدة من أروع لوحات الدم التي رسمت، وبدأ بالفعل بالبحث عن أحد أولئك الدمويين، وكان من حسن الحظ، أن أنزارا لم تعرف في حياتها قاتلاً مأجوراً، يقتل بلا حقد شخصي، ثم رفض جميع من كان يعرف تذوّقهم للدم، من أيام التمرد أو بعده، وعرض عليهم المهمة، أن ينفذوها، وقالوا له كلهم بلا أي اتفاق: نحتاج لعدة خطوات من أجل التنفيذ، أولاً نحضرها إلى أنزارا وتسكن بيتك من جديد، ثم تطلقها رسمياً، ثم نتزوجها رسمياً أيضاً، ثم نتركها تفر مع الكيني مرة أخرى، وبعد ذلك نقتلها بدافع الحقد الشخصي.

الأمر ليس مضحكاً أبداً، لكن الموضوع كبير جداً، إذا ما قاسه بمقياس الرجولة التي يملكها، كقائد سابق، كان مطلوباً للسلطة بشدة، وورد اسمه مراراً، في خطابات وزراء الدفاع الذين تعاقبوا على إدارة تلك الوزارة السمجة، وورد مرة في خطاب ألقاه رئيس الوزراء شخصياً، بمناسبة عيد العلم في مدينة الفاشر، أقصى غرب البلاد، وسمعه بنفسه في الراديو، أثناء تواريه في الغابات. أيضاً لو قيس بمقياسه الحالي، بعدما أنهى تمرّده، وتصالح مع الدولة، كواحد

من رجال الأعمال القلائل في المدن النائية، وتعتبرهم سلطة الخرطوم، من منعشي الاقتصاد القومي.

في ساحة إيبولا، الممتلئة بالشجن، والآهات والحياة، وشبه الحياة، أخرج قناعاً خاصاً، صنعه لنفسه، وكان من القطن والبلاستيك معاً، وارتداه، لم يرد أن يعتمد على الحظ السخيف بعد الآن، سأل عن لويس نوا، الرجل الذي جلب المرض ونجا، فأخبره الذين انتبهوا إلى ساقي نوا العاريتين، ونكشه لأجساد النساء الحيّة، والتي فارقتها الروح، أنه كان هنا منذ ساعة. ويبحث عن زوجته، وقال له أحد عماله الذي لم يتمرّد حقيقة، لكن المرض أرغمه على الغياب، إنه لا يضمر له شيئاً حتى الآن، ولكن عليه أن يكون بعيداً وثابت الأعصاب، في لحظات صحوة الموت، لأن نموذج أنامي أوقيانو، نموذج عام، ويمكن أن ينطبق على عمال المصنع كلهم. حقيقة لم يكره رياك أوقيانو كثيراً، برغم كل شيء عرفه، حتى مسألة الزوجة الغنية بالتفاصيل التي وصفها، ولو عاد إلى الحياة مرة أخرى، لوظفه بلا أي تردّد.

تحرّك بعربته إلى مقر حفرة الموت التي بدت فوهتها فائرة من شدة اللظى، وترسل رائحة الأجساد المتحللة، جنباً إلى جنب مع صرخات الأرواح التي تأبى أن تستسلم لقدرها، وتحلق بعيداً، وغادرها مسرعاً، متجهاً إلى السوق، كان يعرف أن نوا جائع، ومفلس، وقطعاً يستطيع شراءه بوجبة. كان في السوق بعض الرمق، الهمهمات التي سرت في المدينة، وردّدت أن الانفراجة الكبرى قادمة، وصلت إلى هناك، وتشجع عدد من التجار الذين لم يغادروا أصلاً أماكنهم، وظلوا مرابطين لكن خامدين، لاستعادة روح البيع من جديد، رشوا الماء

أمام دكاكينهم، لاصطياد الرطوبة في ذلك الطقس الحار، وشرعوا في نفض الغبار عن السلع، وإعادة تأهيل أصواتهم الخامدة منذ عدة أيام، للمناداة بها، تلك النداءات التقليدية التي تزيّن السلع وتبهرجها، وتستر عيوبها، والمعروفة في أي مكان في العالم.

تفحّص رياك تجار السوق، ونشاطهم المحدود، وانشرح حين شاهدهم يرتدون أقنعته، اشترى عدة كماليات من عدد من المحال، تشجيعاً لما سمّاه، بداية المقاومة الجادة، ضد إيبولا، اشترى وجبة رخيصة، ثم ركب عربته من جديد، واتجه إلى بيت نوا، ويكاد شبه متأكد من أنه سيجده هناك، سكرانَ، وعديم الجدوى كما عهده.

لقد عاهد الآلة القديمة في هياج، بأنها ستعمل، ولا بد أن تعمل.

على مقعد واطئ في الصالة الصغيرة لبيت نوا، جلس رياك ممدداً ساقيه. قيادة العربة وتوغلها في أحياء الوثنيين، عدة مرات في اليوم، ولعدة أيام متواصلة، أنهكته، إضافة إلى تقدّم العمر، وصوته الذي كان يستخدمه في الإقناع، مفسراً به لغة التعاويذ الكاذبة، كان مرهقاً أيضاً، ويأمل الآن أن يستجيب نوا بلا إنهاك إضافي، وأن لا يضطره لاستخدام لغة التمرّد التي هجرها منذ زمن، ولا يستخدمها إلا نادراً، في هذا الشأن البسيط. ومن دون أن يستخدم صوته، مد لنوا الكيس الورقي الذي كان ملوثاً بالزيت، وتفوح من داخله، روائح الثوم والبصل، تناول نوا الكيس ومزقه، والتهم في حقد، واحدة من الوجبات النادرة في حياته، لا بسبب طعمها، ولا أنها في زمن إيبولا، ولكن لأنها من يد، لم تتعود أبداً على العطاء.

نوا قد يكون مهملاً بعض الشيء، وغير مهتم بتفاصيل الحياة

الكبرى والصغرى، ولا يستطيع التفرقة كثيراً بين فعل الخير والشر، لكن هذه الوجبة ليست من فعل الخير أبداً.

– نعم يا رئيس.

قال وفي فمه آخر لقمة لم يرد أن يبتلعها بالرغم من أنه لاكها عدة مرات، وحوّلها إلى صيد سهل لأمعائه الهاضمة، فمه ملوّث بالزيت، ورأسه اعتدل بسبب اعتدال السكر في الدم، لم يكن بسكويت الممرضة كافياً، ليضبط سكر رجل جائع بتلك الصورة المزرية. وكلمة رئيس، لم تكن عشوائية، إنها الكلمة المستخدمة بضرورة ملحة وسط الآلات وهديرها، وحتى في خيالاته حين تصوّر نفسه قاتلاً، لا أحد عمل في مصنع رياك، يستطيع أن يكلمه وجهاً لوجه، من دون كلمة رئيس التي وضعت أساساً لتفرّق بين راع وقطيع أغنام، وطوال سنوات من استخدام تلك الكلمة، عرف العمّال كيف ينطقونها بحقد، وتبدو عادية، بانفلات أعصاب وتبدو عادية جداً، من أطراف ألسنتهم، وتبدو كأنها من الأعماق، وكان الكيني أنامي أوقيانو من أكثر الذين سبّوا بها جيمس رياك، واعتبرها مدحاً.

– نعم يا رئيس.

نوا في لحظة الشبع الحاقد، يحاول أن ينطقها حاقدة، ولئيمة ولا يستطيع.

كان وحده في مواجهة صاحب العمل، حتى تينا لم تكن موجودة، لتقوم بمساندته، بحيل المرأة، لو نطق الكلمة نابية، وفهمها رياك نابية.

– اسمع يا لويس، أريدك أن تعود إلى العمل فوراً، سنعمل أنا وأنت حتى تحدث الانفراجة...

ثم أضاف وكأن نعاساً طارئاً أرخى جفنيه، ولدرجة أن نوا ظنه قد نام. كان قد نزع قناعه الواقي عن وجهه قبل أن يدخل:

حين نعمل أنا وأنت فقط، ستكتشف أنني لا أملك ثعباناً يبتلع أحداً، ولا أشرب كوباً من الدم قبل أن أنام في كل ليلة. ستراقب نومي، وتشم غازات بطني، لأننا سنسكن في المصنع معاً... ونعمل بجدية، حتى في تلك الصحوات الليلية بسبب امتلاء المثانة... هيا لنهزم إيبولا... قم.

إذاً كان يعرف.

ردّد نوا في نفسه، وهو يحس بالرهبة حتى وعينا الرئيس خامدتان، وصوته ليس آمرا تماماً، بالرغم من صيغة الأمر التي خرج بها الحديث... والواقع أن رياك لم يكن يعرف تلك المعلومات المثيرة للجدل التي كانت تقال في حقه، لقد عرفها البارحة فقط، وبمصادفة بحتة، حين كانت زوجة أحد عماله في صحوة موتها، وردّدتها كما سمعتها من زوجها حرفياً.

لم يدر نوا بماذا يجيب... لقد حوّل رياك باقتحامه الناعم ذلك، وبوجبة الغداء الحارة التي جلبها، أفكاره من قاتل تخيّلي، إلى ممتن تخيلي حتى الآن، يمكن ببساطة شديدة أن يصبح ممتناً فعلياً، وهذا ما لم يكن يريده أبداً.

13

الفرصة كانت متاحة بشدة لاكتساب جمهور أرعن في تفاعله. الرعونة هنا، ليست غالباً بسبب الحمق، أو محدودية التفكير التي يحملها البعض، ولكن بسبب الرعب، والفرصة التي أتيحت، تدخل بجدارة في ما كان سيسمّى بعد ذلك، مقاومة الرعب بالفن.

الفكرة نفسها خطرت في نفس الوقت، لاثنين من الكونغوليين، علقا في شراك إيبولا، بلا خيار آخر، وفيما كان الموضوع يبدو بسيطاً، ولا يحتاج لعناء كبير، حتى يخرج على الملأ، في الحدود التي يقطنها جمادي أحمد وأدواته الحية والميتة، ومئات من الفارين المفزوعين، كان شديد الصعوبة، عند عازف الغيتار الأعمى روادي مونتي، الذي يرتدي الآن أقنعة رياك الواقية، وقفازيْ اليدين الخشنين اللذين بالكاد ناسبا رشاقة أصابعه، ونعلاً من القماش اضطرت دارينا لتفصيله بنفسها، وخياطته باليد، وبإبرة لم تساعدها كثيراً، أحضرها لها أحد الفرنكوفونيين من بيته الشخصي، حتى تنتهي تماماً مسألة الصياح التي يبدو أنها ستصبح عادة عند روادي، لو خرج من تلك المعضلة حياً.

كان الصباح غائماً بعض الشيء، شيء شبيه برائحة المطر، ولا مطر، الحدود ملقحة باللعنة وغياب المصائر، والجنود الذين لم يعلنوا حتى

ذلك الوقت، إن كانت مسألة القيادة الجماعية، مزحة أو أمراً جدياً، قد غيّروا ورديّاتهم عدة مرات. ذهب البعض إلى الثكنات القريبة، من أجل الراحة والاغتسال، ومعانقة الزوجات، إن كانوا متزوجين، وعاد البعض منهم وقد ارتاحوا حقيقة، أكلوا وشربوا، وحلقوا لحاهم، ولمعوا الأحذية الثقيلة، وبدوا مستعدين تماماً للاستشاطة غضباً عند أول تحرّش يحدث.

كان مئات القادمين الجدد من كينشاسا، قد انضموا إلى نزف الحدود، في اليوم السابق، و لم يكونوا مع الأسف يحملون أيّ أخبار جديدة، عن السيطرة التي أعلنتها الحكومة، قال البعض إن آليات ضبط السيطرة مسألة معقدة، وتحتاج إلى زمن طويل حتى تنجز، وفروا في انتظار الإعلان النهائي عن إنجازها، وقال البعض الآخر إنهم لا يظنون مطلقاً، أن هناك سيطرة يعمل على تنفيذها... وأضاف رجل كان في ما مضي، عسكري إطفاء، وفقد إحدى عينيه في حريق هائل: لو كانت الحكومة جادة في كل ما تعلنه، لما فقدت هذه العين. واعتبرت جملته الرمزية تلك، من أبلغ ما قيل في ساعات الرعب، ذلك اليوم.

كان جمادي أحمد مهتماً بالتفاصيل، ولطالما التقط في حياته العملية الطويلة، مئات التفاصيل، لكنه لم يستفد منها في تطوير أساليبه أبداً. تلك النعجة الموهوبة مثلاً، التي قفزت عدة مرات أمامه، ورقصت، وقلدت خوار الثيران، لم يقدّر موهبتها جيداً ويوظفها في فقرة مربحة، ذلك الثعبان الضخم غير السام، الذي عرضه سائح هندي، تقطعت به السبل في كينشاسا، بثلاثة فرنكات فقط، و لم يشتره واشتراه غيره، وفتاة من الريف، اسمها تالينكا، قيل إنها تستطيع أن

تأكل الزجاج، وتهضمه، كأي وجبة عادية، وسافر إليها حيث تقيم، والتقط تفاصيلها كاملة، مع عدة صور شمسية، وتركها، ليلتقطها ساحر آخر، أقل خبرة، ويجني من ورائها الكثير، وأخيراً ابن أخته شخصياً، الذي أتقن لعبة نط الحبل، وكان يمكن أن يكون نواة لاعب سيرك محترم، وتركه جمادي بلا أي تقييم، حتى هاجر إلى كندا، وأصبح من أبطال القفز بالزانة المعروفين.

الآن ثمة تفاصيل كثيرة متوفرة في هذا الزخم، تفاصيل راقية، وأخرى تقترب من الحضيض. ولم يكن ثمة ما يؤكد خلوّ تلك التفاصيل من عربدة إيبولا، واحتمال وجوده في دم البعض، لكن عدم سقوط ضحايا في تلك الأيام الماضية، وعدم سماع عطسة أو سعال، أو ظهور نزف على الجلد، أعطى انطباعاً جيداً، بأن مسرح المقاومة نظيف.

بالطبع لن يلتفت جمادي إلى باعة الخضروات، والسبّاكين، وعمال ميكانيك السيارات، والعاملين في الأفران، وشعراء العامية الكونغولية، والمغنين غير المخلصين للفن، الذين فروا بلا آلات وترية تؤكد هوياتهم، لأنه لا جدوى من استخدامها في حيلة مبتكرة، وعثر على فتاتين طموحتين: إيزابيلا ومريم، أبدتا استعداداً كبيراً للمشاركة في برنامج مكافحة الرعب بالفن...

كانت إيزابيلا طالبة في مدرسة الفنون العليا بكينشاسا، وتفر بصحبة أمّها وأخويها، ولطالما تمنّت أن تكون فقرة مجدية في كرنفال، وأجهض سريان المرض في البلاد فرصتها، حين أُلغي حفل خيري كانت ستغني فيه أغنية، صاغتها بنفسها، ولحّنتها باندفاع الرغبة الشديد.

مريم لم تكن فنانة، ولا قريبة من الفن بأي صورة من الصور، لكنها تتطلع للعمل في السياسة، لا عن طريق حزب مستهلك من تلك الأحزاب الطاعنة في السن، ولكن بتكوين حزبها الخاص الذي سيسمّى الشمس، ويظل يعارض بلا نهاية، فلم تكن في بلادها أغنية خفيفة الظل، اسمها الديمقراطية، تأتي بالناس إلى الحكم، وتكنسهم إن أخفقوا... هناك عسكريون يحكمون، وعسكريون ينقلبون على حكم العسكريين، وعسكريون يطمحون للانقلاب على العسكريين المنقلبين، وهكذا.

في هذا الكرنفال الذي فكر فيه جمادي أحمد، وتحت ضغط الرعب الهائل، ستكون ثمة حيل جديدة، الفتاتان ستختفيان عن الأنظار فجأة وتظهران من خلف الناس، أو تحت أقدامهم، أو فوق رؤوسهم حتى. هي حيلة غير مضمونة النتائج، ولطالما خاف من تجربتها حين كان آمناً، متمركزاً في شارع زومبي، وجرّبها مضطراً، في أول يوم قدومه، لأول مرة، ضد الجنود الصلدين، المرابطين، و لم تخف أحداً عن الأنظار، لعلها أخفقت بسبب عدم التركيز، أو لعلهم يزوّدون الحراس بتعاويذ ضد ألعاب الحواة، هكذا فكر جمادي، وابتدأ يعد مسرحه المتنوع، وسط صخب غير عادي، وسط فزع باهر، ونفوس مشغولة بإحصاء الاحتمالات كلها، بما فيها أن تقرر السلطات فجأة، أن تلقي بقنبلة حارقة، زنة طن كامل، تعيد الانضباط إلى المكان.

كيف نقاوم الرعب بالفن؟

كيف نغني ونصفق للرقص والحيل السحرية، وننبهر، ونحن بلا مصير؟... كيف... كيف؟

التساؤلات كثيرة، والذين يتساءلون يحاولون سن التساؤلات بشدة، لتخرج مدبّبة. وأقسى ما في الأمر، أن ولا واحد أو واحدة حتى الآن، صرخ أو صرخت:

– غير معقول... الساحر العظيم جمادي أحمد بشحمه ولحمه؟... غير معقول؟...

تلك الصرخة، لو حدثت، ولا أي شيء بالنسبة لواحد مثله، لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تطرد الموت، أو تهب الحياة... فقط يحتاج إليها الآن ليعود أكثر تركيزاً... همّ أن يهمس في أذن تلك المرأة العجوز التي كانت تحبّه من قبل، وتتحاشى الانبهار به الآن، وكانت مكوّمة علي الأرض، تأكل خبزاً يابساً، يهمس لها بأن ترفع أسهمه قليلاً، وتصرخ منبهرة، و لم يفعل، يختار واحداً من جيل الشباب، الحليقي الرؤوس، ويرشوه ليصرخ، و لم يفعل أيضاً، وحين أخرج أدواته من الكيس، ليبدأ الفقرات التقليدية التي يتقنها أولاً: التنفس من فروة رأسه، تحويل الحمامة إلى أرنب، تحويل الأرنب إلى دجاجة، ابتلا ع الأمواس الحادة، وإخراجها معقودة بخيط، بدا أن لا أحد انتبه حتى لوجود أدوات، وحين فعَّلها، وأكمل تفعيلها وأدّى الحيل كلها بسرعة وجنون، وانتظر أن يصفق أحد، واستعدّ لخرق قانونه في المصافحة، في انتظار أن يصافحه أحد، لم يجد شيئاً...

كانت مقاومة الرعب في تلك اللحظة، ليست بالفن، كانت بمزيد من الرعب، حتى الفتاتان إيزابيلا ومريم، لم تكونا أكثر تفاعلاً، كما كان ينتظر منهما، كانتا تتملصان من نظراته وإشاراته، تركضان بعيداً

عن الجموع، وقد رسمتا على الأرض مربّعات لعبة الحجلة، للتسلية ومقاومة الرعب باللعب.

في النهاية كان على جمادي أحمد أن يحترم رعبه، أن يجعله يعربد كرعب الآخرين، بلا تدخل منه، أعاد كل شيء إلى جموده، وتمنى لو ماتت تلك الحيل كلها، في تلك اللحظة، حتى يكون حراً طليقاً، وغير ساحر على الإطلاق.

روادي مونتي لم يكن أفضل حالاً، الرجل تنازل بعمق عن كل حالاته العصبية، وعن وقته الذي سيضيع في الشوارع، بلا أجر، وعن قفازيه الواقيين، وعرّض كبده للتلف، بزيادة جرعة مثبطات الغدة التي يتناولها... ولو لم يكن قد أقلع عن شرب الخمر منذ سنوات، لأمعن في إتلاف الكبد أكثر:

– دارينا... بقية الرفاق... سنقاوم الرعب بالفن... هل تتفقون معي؟

الفرنكوفونيون لن يتفقوا معه على الإطلاق، وكم من مرة أخبروه صراحة، أنه لم يعد نجماً متلألئاً، في سماوات تلك الأيام العصيبة، وعليه في سبيل أن يستعيد نجوميته، أن ينتظر.

لم يحددوا زمن الانتظار، يوماً... يومين... عشرة، لأنهم لا يملكون حيوية إيبولا ولا دقته، وليسوا منجمين ليعرفوا المستقبل.

دارينا كانت خائفة جداً. دارينا المرأة، التي لا بد تهتم بأنوثتها، وتعشق مطالعة المرايا، وتعرف شيئاً عن تسريحات الشعر، وملابس الفتنة القصيرة والمحزقة، وحلمت كما تحلم بنات جيلها بالفرسان والأساطير، لن توافقه. ودارينا العصا التي التقطها من الطريق، وربّاها

في بيته، وحملها معه أينما ذهب، ستوافقه بكل تأكيد.

الآن، الفتاة فعلاً مشتتة، وقبل أن تأتي إلى أنزارا بأسبوع فقط، عثرت على رجل أحسّت بأنه ربما يقدّرها، لا كعصا بل كامرأة... كانت تتغدى مع روادي في مطعم مميّز اعتادا الغداء فيه أحياناً، حتى في المطاعم هي عصا، تعدل مسار قدح الحساء إذا شاهدته ينحرف في يد العازف، حتى لا تندلق محتوياته، تتأكد من تمييزه بين شرائح اللحم وشرائح البطاطا، وممكن جداً أن تروي له نكتة خليعة حتى يكمل غداءه بلا ضجة. الفتاة لها طموحاتها، ولها قلبها النابض، قلب اللقيطة أيضاً قلب إنسان، من المؤسف أنها تعرف أصولها المجهولة، تعرف أنها ليست ابنة رجل يشار إليه باسمه، ولا امرأة تلح عليها مراراً وهي منزعجة، أن تمشي بوقار في الطرق الملوّثة، تشد قميصها حين تجلس في وسط المجتمع، ولا تكشف الساقين، هي وحدها عرفت بذلك، عرفت من دون أن تسأل، و لم يكن حقيقة من يهدّد بكارتها عند روادي، لأنه أولاً لم يرها مطلقاً بحكم غياب البصر، وثانياً لأنه تزوّج غيتاره العريق زواجاً كاثوليكياً بحتاً، بكل طقوسه ومصائبه... وأعلن بعد طلاقه من المرأة الأخيرة، أنه لن يعدل أبداً، إذا ما دخلت ضرة للغيتار بيته، فسيهجرها إلى أحضان الغيتار.

الرجل الذي شاهدها في المطعم المميز، وابتسم لها بود، وترك مائدته وانضم إلى مائدتها مع العازف، كان شهيراً أيضاً، نفس شهرة روادي مونتي وربما أكثر قليلاً، وكان وسيماً إلى حد ما، وأعزب، وماتت أمه منذ عامين، وتركته في انهيار عصبي لم يشف منه إلا أخيراً، ونصحه المعارف أن يتزوّج، وكان في حاجة إلى أمه، أو بالعدم فتاة

تشبه أمه. إنه لاعب كرة المضرب المعروف، باديدي.

بالطبع احتفى العازف بانضمام رجل من الصفوة إلى مائدته، خصه بجزء يسير من وقت الأكل، لأن لا وقت آخر متوفراً لدى روادي ليخص به أحد... وعرف على الفور مستخدماً فطنته، أن ملابس اللاعب رياضية، والسلسل الذي يضعه على عنقه، ويهتز، ليس من الذهب الخالص عيار 21، عرف أن تلك الحفاوة التي أبداها العازف لا تخصه، في أيّ فقرة من فقراتها، إنها حفاوة جاءت من أجل دارينا.

لم تكن ثمة تفاصيل أخرى كثيرة، والتفاصيل التي تجدر حكايتها، أن دارينا وقعت في عشق لاعب كرة المضرب، واثقة تماماً من أنها اجتذبته، ثقتها بوجهها وحديثها، وقوامها كانت مفرطة، ذلك الإفراط الذي جعلها لا تنتبه إلى أن اللاعب، طوال جلسة المطعم التي استمرّت ساعة، كان شبه شارد. لقد كان يستعيد تفاصيل أمه الراحلة، ويحاول مقارنتها مع التفاصيل الحيّة التي أمامه، و لم يصل إلى أي نتيجة.

– دارينا... يا رفاق... لنقاوم جميعنا، لنقاوم الرعب بالفن... هيا إلى شوارع المرض نطربها.

لم يتحمس أحد... الفرنكوفونيون مشغولون بإحصاء خسارات ست حفلات قادمة، كان سيحييها نجوم آخرون، يُستقدَمون من كينيا ويوغندا وساحل العاج والخرطوم، ويشملون مغني البلاد الكبير عثمان حسين... وهذا الأخير كان موجهاً للعرب الذين ليسوا أقلية وليسوا فقراء وسيدفعون مضاعفاً ليستمعوا فقط إلى أغنية مثل: مسامحك يا حبيبي. والفتاة تسترجع لاعب التنس وتحلم، تكتب له رسالة في قلبها،

ولا تعرف إن كان سيقرأ قلبها أم لا... حبيبي... انتظرني في نفس المكان... ستنتهي المأساة وأعود قريباً.

عند تلك النقطة، كان على روادي أن يعمل وحده، أقسم داخل نفسه، بأنه لو نجا، فلن يحيي حفلاً في أنزارا، ولا أي مكان آخر في الدنيا، بعد ذلك أبداً، وتلك الفتاة دارينا، سيزوّجها لواحد من آل دمبتالو، السفاحين، لو صادف أن أحدهم كان خارج السجن، أو خارج موت إيبولا. اتكأ على مقبض الكرسي ونهض، غيتاره في يده اليمنى، ويده اليسرى تتحسّس الطريق، أنفه يتشمّم زفارة الشارع العام، من أجل تحديد موقعه، كان حريصاً بشدّة على غيتاره العريق، ومشى عدة خطوات قبل أن يصطدم بلوح معدني، كان مسنداً إلى أحد الأركان، كان الفرنكوفونيون قد توقفوا عن إحصاء الخسارات، وتابعوه بعيونهم، والفتاة لم تكمل رسالة القلب، ونهضت واقفة... سترافقه إلى الطريق وما يحدث فليحدث.

الموتى، بكل تأكيد، لا يحتاجون إلى عازف متمكن وشهير، والأحياء الأشبه بالموتى، سيسعدون حتماً لو عثروا على طبيب منقذ أو لقاح، يعدم إيبولا إلى الأبد، والأصحاء ما يزالون مشغولين بالرعب الذي لن يحاربه الفن...

الفن للفن... هي المقولة المفضّلة في تلك الأيام العصيبة، ومقاومة الرعب لا تأتي إلا برعب أكبر... وفي الطرق التي ترنّح فيها روادي بغيتاره، وعزف عدداً من المقطوعات التي كانت مقررة في المدارس الكونغولية، من أجل غرس الوطنية في الطلاب، وكلها مارشات عسكرية صرفة، لم يجد من يقف دقيقة ويسمعه، ومن يمر مقترباً

ويسمعه، ومن يوازيه في الجانب الآخر من الطريق ويسمعه. غيّر المارشات إلى أغانٍ عاطفية ومأساوية، ولكن يبدو أنه لم يكن هناك من يفسّرها أو يتفاعل. تعب روادي مونتي وتعبت الفتاة، وتعب الفرنكوفونيون الذين تبعثروا في الخلف واجمين، وانهزمت مقاومة الرعب بالفن، هنا في شوارع أنزارا وأزقتها، كما انهزمت في الحدود.

لا شيء يقاوم الرعب مثل الرعب نفسه، أو الأكثر منه، ولا سيادة لفن أو جمال في زمن إيبولا. وفي طريق العودة إلى البيت الراقي، بدا أن روادي سيقول شيئاً، و لم يقل أي شيء.

14

أقصى درجات التعاسة، أن تخون محبيك، تسافر وراء النزوات، وتجلب الشر، ويموت الآخرون، وتعيش لتذكرهم قليلاً، أو لا تذكرهم على الإطلاق.

أقصى درجات المسكنة، أن تضطر لتأكل بحقد، وتتجشأ بحقد، وتسهم بحقد في إعادة الحياة لمصنع، لم يمنحك الحياة، حين كنت تريدها كاملة، ولن يمنحك إياها في أي وقت آخر.

كان نوا يوسوس لنفسه، وطلبُ رياك الذي قدّمه ناعماً، بوجه ضاحك، ويدعوه للعودة إلى العمل فوراً، ما زال بلا إجابة، وقد داهمه شيء من الاستغراب، استغرب به داخل نفسه فقط:

كيف يجد هذا المحارب القديم، متسعاً من الطمأنينة ليدير تجارة وسط الرعب؟ كيف يستثمر الرعب بهذه السرعة، وكيف لا يخاف من العدوى، ولا يسعى لإحياء ضميره؟

الإجابة ليست عند لويس نوا، وهو نفسه لم يسعَ لاسترداد ضميره حين جاءته الفرصة ليستردّه، صحوة الموت الكاذبة كانت اختباراً حقيقياً، سقط فيه، وتلك الصحوة المتأخرة، تحت ثقل الذكريات في بيته، على سرير الخشب المفروش بملاءة العذرية الحمراء، لا تقدّم ولا

تؤخر، ولن تعيد الذين ضاعوا وتوغلوا في الضياع. والآن يسأل عن ضمير رياك، ورياك قالها عشرات المرات من قبل ومستعد لقولها مجدداً حتى من دون أن يسأل، إنه سيستثمر الحياة حتى آخر رمق، ولا يهم ما يحدث بعد فنائه.

مسألة أن يكون ممتناً له بسبب تلك الوجبة، ليست ذات قيمة كبيرة، لو أخضعها لأي تقييم، وكان من الممكن أن يتسوّل من السوق ويصبح ممتناً لأحد التجار العرب، يقتحم أحد المحال المغلقة، يسرق شيئاً من الخبز والمعلبات، ويصبح ممتناً للشجاعة وغيبة القانون، وإذا اضطر، فسيكنس دكة قذرة في الحيّ الأجنبي، أو ينظف مؤخرة طفل فرنسي، مقابل وجبة، أو يقدم خدماته الجليلة، في محاربة إيبولا، وغالباً تهتم السلطة البلدية بإطعام من لهم نفس للأكل، بعد رؤيتهم لتلك الأرواح الضائعة.

طلب رياك في تلك الدقائق التي أمضاها لويس نوا، يوسوس لنفسه، ويحاول أن يعيد تخيّلات القاتل، إلى ذهنه ولا يقدر، لم يعد رجاءً ناعماً بعينين شبه مغمضتين، واتكاءة على الكنبة القديمة، لقد أصبح طلباً عنيفاً، لا دخل للامتنان فيه. تلك اللحظة، هبّ رياك واقفاً، ارتدى قناعه وقفازيه، أمسك نوا من يده، جره إلى حجرته الداخلية، حيث بقايا تينا أزاقوري، وبقايا تطلعاتها، ما زالت كما هي، ورائحة البخور الحميم الذي أوقدته في تلك الليلة الاستثائية، ما زالت عابقة، ألقاه على السرير المتهالك، ومن داخل الخزانة الخشبية المفتوحة، أخرج لباس العمل الرمادي، نزع عنه ملاءة المستشفى المتسخة، وألبسه البدلة بنفسه، متجاهلاً عورته التي كانت في وضع

المأساة، ليس أكثر من ذلك، عورة ذابلة. الأمر تم بسرعة غريبة، هي نفسها سرعة رياك في تدارك الخطر التي اشتهر بها أيام التمرّد، وسرعته في إنتاج الأقنعة الواقية، التي اكتسبها في الأيام العصيبة الماضية. الآن لويس نوا معتقل داخل سيارة الجيب القوية، اعتقالاً ضيّع عليه فرصة الاستمتاع بمقعدها المخملي الوثير، وكانت المرة الأولى التي يركب فيها عربة بهذه الخفة، وفي المصنع الذي ما عاد ضاجاً، وتهيمن على مساحته القطط المشردة، وبعض الكلاب التي سعت لمطاردتها بدافع تمضية الوقت ليس إلا، أوقفه أمام الآلة العتيقة، الآلة التي أعيدت للخدمة، ورقيت إلى جنرال بسبب الوباء وشح العمالة. وطلب منه أن ينتج.

–أنتج ماذا يا رئيس؟

تساءل نوا في براءة، لكنه نجح هذه المرة في أن تخرج كلمة رئيس من حلقه، كما تخرج كلمة سخيف.

ما كنت تنتجه في السابق.

لا أستطيع يا رئيس. الوقت غير مناسب للإنتاج. أنا في حالة حداد على تينا، المدينة كلها في حالة حداد على الضحايا.

قال نوا، وكلمة رئيس هذه المرة، واضح تماماً أنها الكلمة التي تعني: اذهب إلى الجحيم.

لكن رياك لن يذهب إلى الجحيم، ولا أي مكان آخر بعيد عن مصنعه. فقد بدأت خصال التمرد التي نبذها سنين، تنطبع على تصرفاته بالكامل، خبّ إلى باب المصنع الموارب في حذر، أغلقه ببطء، بعد أن ألقى نظرة متعجلة علي الطريق، قصد مكتبه وعاد بسلاح رشاش،

غير مرخص، كان مخبأ في رف من الخشب، في إحدى الخزائن، وضعه على كتفه بعد أن عبّأه بالرصاص، ووقف يستمع بنشوة إلى هدير الآلة القديمة، حين بدأت تعمل، ينتشي أكثر، وهو يشاهد ركبتي نوا ترتعشان، ولسانه يخرج جافاً محاولاً أن يبلل الشفتين ولوهلة خطرت بباله فكرة مزعجة، لمن ينتج حقيقة؟ والمدينة مستعدة للتعري الكامل، كي تقايض به الموت، وسكة السفر لتوزيع الإنتاج في الدول المجاورة مغلقة، لكن بنفس تفاؤله أن حرب العصابات التي كان يشنها على السلطة، ستنتهي ذات يوم، بتسوية مرضية، وانتهت بالفعل بتلك التسوية التي منح بموجبها أرضاً واسعة أقام فيها ذلك الصرح، ورأس مال جيد، استثمره، كان الآن يتفاءل بأن الوباء سيندحر، وتعود الحياة أفضل مما كانت عليه، وبالنسبة للزوجة المختبئة في كينيا، بصحبة سائق الشاحنة المخنث، لا بأس... سيجدها بنفسه يوماً ما، ولن تكون مغرية أبداً، ليختطفها أحد بعد ذلك... كان أكثر ما يريحه في هذا الموضوع الأخلاقي، أنه لم ينجب منها عيالاً، وبذلك أراحته من عبء التفكير المضني، في مسألة النسب، لو كانت قد أنجبت بالفعل.

كانت الآلة الجنرال تدور في بطء، طاردة غباراً كثيفاً، وبرازاً متخثراً، تركته القطط المتسكعة، الخيوط تتشابك بألوانها المتعددة، الأزرق، الأحمر، البنفسجي، وتتضفر قمصاناً وسراويل، وشالات للدفء والأناقة الفقيرة، ونوا ما يزال ثابتاً برغم ارتعاشه، وسيثبت حتى نهاية وردية العمل، وورديات عمل أخرى ستعقبها، وسيكتشف، وهو سجين بلا أي تهمة سوى أنه لم يمت، أن رياك أنتج له منامة رخيصة من حثالة القطن، واشترى له فرشاة أسنان بدائية، وماكينة

حقيرة لحلاقة اللحية، وألقى بمرتبة قطنية في أحد الأركان، ليتمدد عليها، لساعات محدودة.

سيكتشف أيضاً، لأول مرة منذ أن مرض وشفي، أن الموت في حالته، كان ضرورياً جداً، وأفضل كثيراً من هذه الحياة التي يقضيها الآن بلا مباهج.

الغريب في الأمر، أن إيبولا لم يكن يتحاوم حولهما في تلك اللحظة، كأنه ترك نوا وشأنه، بعد أن أبلغه رسالة في غاية العنف، وكأن رياك لا يهمّه في شيء، أو يدّخر له موتاً كبيراً يليق به. موت واحد مثل جيمس رياك في مدينة محدودة الطموح مثل أنزارا، سيكون موتاً ترفيهياً للذين ما زالوا يحلمون بالترفيه عن أنفسهم، ذلك أن صحوة موته، لن تكون عادية وماسخة ومكرّرة، مثل صحوة أهل المدينة الباقين، كلها خيانات وعلاقات غرامية سمجة، هنا قطعاً مسائل معقدة كثيرة، شيء من حياة الغابات البعيدة، وشيء من حياة ما بعد الغابات، كرجل أعمال حر، تحترمه نفس السلطة التي كانت تطارده في السابق.

في الساحة الكبيرة، ساحة إيبولا، حيث العمل ما يزال مستمراً، أعلن الطبيب الوثني لوثر الذي لم يصب حتى الآن برغم وجوده في المستنقع، أنه لم تعد هناك محاليل للتروية، ولا مسكنات للصداع والحمى، ولا شاش ولا قطن لإيقاف نزف الجلد، ولم يعد هناك من يمنح دماً، وحتى لو وجد، فإن المحاليل التي تكشف نوع الفصيلة، وإمكان أن يكون الدم ملوّثاً أو نظيفاً، لم تعد موجودة، أعلن في صوت هادئ رصين، أن زميله نصر الدين أكوي، توفي صباح هذا اليوم، بعد أن أدى واجبه كاملاً في مكافحة الوباء، وأنه لن يلقى في

الحفرة الموحدة، التي تضم الضحايا، لأن الطبيب حتى لو مات بالمرض الموحد، فلا بد أن يدفن بما يليق وسمعته.

بديهي لم يكن أحد يعرف شيئاً عن صحوة موت الطبيب، وما كان يليق بزميله أن يعلنها حتى لو كان يعرفها.

على الحدود كان ثمة حدث جديد، ويبدو أن الفكرة التي خطرت لجيمس رياك في صنع الأقنعة الواقية، ونفذها في أنزارا، وربح منها الكثير، قد خطرت لرياك آخر كونغولي، ممكن جداً أن يكون قائد حرب عصابات سابقاً، أو جنرالاً متقاعداً، يدير مصنعاً للنسيج، بعامل واحد معتقل، بسبب شح العمالة، لأن شاحنة محملة بتلك الأقنعة، وصلت إلى الحدود، وهي تحمل مروّجين للسلعة، أكبر عمراً، وأكثر إلحاحاً، من مروّجي سلعة رياك في الشوارع، انتشروا وسط الفارين المرعوبين الذين رفضوا من قبل تماماً، فكرة مقاومة الرعب بالفن، واتجهوا إلى الطريقة القديمة، طريقة الجدل البيزنطي:

هل البيضة من الدجاجة، أم الدجاجة من البيضة؟

كان الساحر جمادي قد أصبح الآن واحداً منهم، وكان في جانب الذين يقولون إن البيضة من الدجاجة، واحتد عدة مرات، وهو يحاول أن يبرّر لماذا اتخذ هذا الموقف.

انتشر مروّجو السلعة الكونغولية بسرعة انتشار المرض نفسه، باعوا بقسوة وإلحاح، ولم يبق بلا قناع، سوى الجنود الذين رفضوا الشراء بشدة، قالوا ليس في الأوامر التي وردتنا، أمر واحد يتحدث عن ارتداء الأقنعة. شيء آخر حدث، أن كثيراً من الفتيات العازبات، اللائي صادف وكن بين الفارين، وجدن تجمّع الحدود هذا، وإن كان

مسوّراً بالرعب، يصلح تماماً لبدء علاقات غرامية طارئة، لن يكتبن فيها الرسائل، ولن يتعشمن في وعود زواج أو خلافه، مجرد علاقات تنعشهن قليلاً، ويمتن وهن مجرّبات للعشق واللوعة، وكل المطبات التي يتحدث عنها العشاق منذ فجر التاريخ. النظرات بدأت تتحاوم لانتقاء الأوسم والأفضل، والذي يبدو شهماً وثابت القلب، وبالطبع لن تتحاوم أيّ نظرات حول رجل مثل جمادي أحمد.

دارينا ليست على ما يرام، بثور حب الشباب التي شفيت منها العام الماضي، بعد جلسات متعددة عند أطباء الجلد، عادت لتغزو وجهها من جديد، وتلك العطسة العادية التي عطستها، جعلت ركبتيها ترتجفان، وجلدها الذي حكته من قرصة بعوضة، ونزف، أطار عقلها حقيقة. يقولون في كل النشرات التي استمعت إليها من الراديو الصغير، الذي تركه الفرنكوفونيون دائراً، إن المرض يبدأ بالعطس، وآلام المفاصل، ثم يبدأ النزف، وقد عطست، وتحس بألم في مفاصل يدها، وها هي بقعة نزف في ساقها. قامت من ركنها، وجلست عدة مرات، وألقت ببصرها على روادي الذي كان غافياً، ويحلم بحسناوات شوارع بروكسل، اللائي لم يرهن حقيقة، لكنه عرف بتفاصيلهن، من فطنته التي تعرف كيف تجمع الشوارد وتصنع منها تفاصيل جديرة بالاسترجاع، أحست دارينا بأن النهاية وشيكة، نهايتها هي لا نهاية أحد غيرها، فقط لو أمهلها الفيروس حتى تتأكد إن كان لاعب كرة المضرب يحبها أم لا؟... إن كان قد نوى الزواج منها أم لا؟... لقاء المطعم كان عابراً بالنسبة للرجل، و لم يكن عابراً بالنسبة للمرأة التي تسكنها، وتتمرّد أحياناً على وضع العصا الذي

تشغله منذ وعت... أرادت في تلك اللحظة أن تنشغل بشيء قبل أن تسقط، مثلاً أن تقشر قليلاً من اللب، و لم يكن ثمة لب، تفك شعرها وتضفره، لكن يديها لا تساعدانها، وتصنع طبقاً من البيض الذي تفضّله نصف استواء، وكان البيض موجوداً في مطبخ البيت الراقي، لكنها ليست جائعة. هذه المرة هي من سيزعج روادي، من سيوقظه من تحت أجساد البلجيكيات، ويحاول إرباكه بلغة غير معتادة، لا لشيء سوى مقاومة الرعب بالتفاهة:

– روادي.

– انتظري قليلاً يا دارينا.

ردّد العازف من منتصف حلمه الوردي، كان بصحبة مغنية أوبرا رائعة، لم تكن موجودة حقيقة، و لم يستعدها بعقله الباطن، لكنه اخترعها، ووظفها معجبة لأدائه، وتصحبه الآن في جولة بشارع غاليري ستريت، لا يرى فيها شيئاً، لكنه يتحسّس الأشياء بفطنته.

– لحظة يا دارينا حتى تنتهي ماريا دونكن من مغامرة اختطافي الرائعة، وتعيدني للفندق.

دارينا تعرف أحلام رفيقها جيداً، أحلام يقظة متمكنة، لكنها تتبعه إلى النوم، نافية عنها اليقظة بشدة، يخترع تلك الأحلام حين يكون الواقع مسموماً ولا طريقة أخرى للحياة، حين تأتي أيام لا يطلبه فيها أحد لإحياء حفل، ولا يكون بمزاج كافٍ لابتكار مقطوعة جديدة، وحين يحدث انقلاب عسكري مفاجئ في بلاده، ويحاول حساده أن يضعوه في خانة سدنة النظام القديم، تملقاً للسلطة الجديدة، ويستدعى عشرات المرات لاستجوابه، والاستماع لأوامر أعدت له خصيصاً،

أن يؤلف مقطوعة تمجد السلطة. كان يلج تلك الأحلام... ويعيش فيها زمناً قبل أن يفيق.

انتهى الحلم بلا أي مشكلة... أعادته مغنية الأوبرا ماريا دونكن إلى الفندق وقبلته.

– نعم يا دارينا... نعم... هل انتهت موجة الرعب؟ هل أقلع إيبولا عن القتل؟ هل صرنا أحراراً وسنعود إلى بلادنا اليوم؟

– لا.

ردت الفتاة وقد اقتربت منه كثيراً، كأنها تهم بتقبيله، أو كأنها تستثير فطنته ليتعرف إلى تفاصيلها الحميمة، وروادي يعرف تلك التفاصيل، ورعاها منذ كانت براءات طفلة، حتى غدت مغريات امرأة.

كان منظمو الحفل الفرنكوفونيون قد انتقلوا إلى عدد من حجرات البيت الخالية، يحصون الخسارات أو ينتظرون الموت، وقد تركوا بيوتهم الأصلية، وتفرغوا للخوف والتأملات، بعيداً عن الأجواء الأسرية وقريباً من النجم الذي لن يتلألأ مجدداً، إلا إذا رحل الوباء، وكان في عهدتهم ويجب رعايته مهما كان.

– لا... لكن مجرد سؤال عابر، لماذا لم تتحرّش بي طوال إقامتي معك؟

السؤال لم يكن عابراً، هو سؤال مقاومة الرعب بالتفاهة، والإجابة صادمة، ومرة المذاق، وتدخل في سياق مقاومة التفاهة بالحسم.

لأنك أتفه من أن يتحرش بك نجم مثل روادي مونتي. اذهبي من أمامي يا دارينا.

ردّ روادي، وقد انفلتت أعصابه تماماً، و لم يستطع برغم المجهود الكبير الذي بذله، من أجل إيجاد عذر للفتاة، بما في ذلك الرعب الذي تعيشه ويعيشه معها، أن يسيطر على عضلة واحدة من عضلات وجه.

الذي لم يجعل الفتاة تموت غيظاً في تلك اللحظة، هو أن الباب طرق بعنف، وجاء أحد منظمي الحفل راكضاً من غرفة داخلية، وهو يحكم ارتداء قناعه، غاب قليلاً عند الباب، وجاء يصرخ مهللاً:

أبشر يا روادي مونتي... أبشري يا دارينا، أبشروا يا رفاق... لقد وصلت النجدة، طائرات الهليكوبتر تحلق في سماء أنزارا... وصل الإنقاذ.

بقية الفرنكوفونيين، خرجوا يتراكضون، شبه عراة، وكانوا في حالة تخفف من الأعباء كلها، بما فيها عبء ارتداء القمصان والسراويل، أسرعوا إلى الطريق ودارينا خلفهم، وصوت العازف ينادي... يا رفاق... يا دارينا... ماذا يحدث؟

15

خيبة الأمل...

أكثر العبارات قساوة، للمفرطين في الأمل. وأكثرها وحشة وفراغاً، وإنهاكاً للأرواح.

ولطالما جرى تداول تلك العبارة، عبر تاريخ المجتمعات، تداولها في السير، والمذكرات، والحكي الشفاهي، باستحقاق وغير استحقاق. كأن يردّد أحدهم في إحدى القرى التي تعتمد على ريّ المطر: خاب أملي في تلك السحابة الداكنة، حين لم تمطر.

كأن يُردّد في كل مكان: خاب أملي في الحكومة المنتخبة، حين استحالت كابوساً، في القمر الذي يشبه وجه حبيبتي، حين خسف فجأة، في سلة غذاء العالم، حين وجدتها فارغة، في رواية لغابرييل غارثيا ماركيز، اسمها ذكرى عاهراتي الحزينات، ويمكن جداً أن تردد أمنياً في سرداب تحت الأرض، يتحطم فيه مناهضون لسلطة بلادهم: خاب أملي في ذلك الصرصور الحقير، حين مات قبل أن أفقأ عينيه وأقتلع أظفاره.

خيبات الأمل كثيرة، ومتشعبة، وبعضها مشهور جداً، خيبات العشق، والمرض والموت، والهزائم، والانكسارات بأنواعها، حتى

الفاتح المغولي جنكيز خان، كانت له خيبات أمله، والإسكندر المقدوني، له خيبات أمله، و«حتى أنت يا بروتس»، تلك العبارة المألوفة، التي تردد كثيراً، من إحدى خيبات الأمل الكبرى التي نقلها التاريخ.

خيبة أمل المحاصرين بإيبولا، سوى في الحدود الكونغولية السودانية، أو في داخل أنزارا المقرصنة كلياً بضياع المصير، هي أيضاً خيبة أمل مدهشة، ذلك أن الأمل كان كبيراً، والهمهمات التي ردّدت في الساحة الموبوءة، لم تذكر أي شيء خلاف أن نجدة قادمة بطائرات الهليكوبتر.

حقيقة لم يكن أحد يعرف ما ستحتويه تلك الطائرات، و لم يجهد أحد نفسه في التساؤل إن كانت تحمل دواءً أو طواقم طبية، أو أقنعة متطورة، أو هواءً نقياً، يضخ في الأجواء. كانت كلمة نجدة في مثل تلك الظروف، تكفي كثيراً.

في سماء الحدود، حيث الرعب أضحى كائناً حياً، يعيش وسط الكائنات الأخرى، ظهر السرب الغالي لطائرات الهليكوبتر فجأة من بعيد، وصرخ الساحر جمادي، صرخ بأعلى صوته:

– ألم أقل لكم؟

وكان في الحقيقة لم يقل أي شيء بخصوص نجدة قادمة، و لم تكن قد طرحت هذه الفكرة في الحدود أبداً، لقد انشغل في البداية، بمحاولة مقاومة الرعب بالفن، وأخفق، وانغرس في الإخفاق، لدرجة أن خامات ألعابه الحية: الدجاجة والأرنب والحمامة، انفلتت من ثقب كيسه وتحررت، و لم ينتبه، وانحاز أخيراً إلى الرعب الكبير، رعب الفارين كلهم، حين سخر لاستعادة الجدل البيزنطي: هل

البيضة من الدجاجة أم الدجاجة من البيضة؟

– ألم أقل لكم؟...

وتسأله العجوز التي كانت تحبه في الماضي، وتطارد فقراته، وتجاهلته في كل تلك الأيام، وعيناها معلقتان بالسرب الأسود الذي يقترب:

– ماذ قلت؟

ولا يتذكر جمادي ماذا قال، لأنه أصلاً لم يقل شيئاً. كلمة أن النجدة ستجيء، أسعفه بها أحد زملاء الفرار، حين أخفق في ترديدها. وحين حازت الطائرات المكان، وأصبح بالإمكان رؤية طولها وعرضها، والخدوش التي على هياكلها، ردد الجميع:

– النجدة وصلت... النجدة وصلت.

وحين تجاوزت الرعب إلى بعيد... جاءت خيبة الأمل الكبيرة التي يمكن إضافتها بسهولة، لخيبات الأمل التي سيدوّنها التاريخ في ما بعد.

لم يكن مدوناً في الأوامر التي يتلقاها حراس الحدود باستمرار عن طريق جهاز اللاسلكي وشيفرة موريس، أن نجدة ستجيء، وهم لم يفهموا نفسية أحد من المتجمهرين في المكان، لأن فهم النفسية أيضاً لم يرد في الأوامر، وقد جرّب جمادي أثناء فترة استراحة بين دورة جدل بيزنطي، ودورة أخرى، أن يسأل نفس الجندي ذي اللحية النابتة البيضاء، الذي أخبره بحسم، من قبل، بأن لا قيادة لفرد في هذا المكان. سأله إن كان من الممكن أن يدرج النساء والأطفال والشيوخ الطاعنين في السن، وهو أحدهم، في أمر إنساني من أوامرهم الكثيرة، حتى لو كان قديماً وانتهت صلاحيته، أخبره أنهم يحتاجون إلى خيام مجهزة

ساترة. بدلاً من ترديد الآهات في العراء، ولو تنازل سعادته، وسمح بأن تُخلى لهم إحدى الثكنات الكبيرة، حتى يرتعبوا على راحتهم بلا كشف حال.

الجندي استثير بشدة، صوّب ناحية سحابة عابرة، وخاطبه، وأيضاً من أعلى مذكراً إياه بقصر قامته المخزي:

– تراجع إلى مكانك أيها المواطن... تراجع.

وتراجع الساحر العجوز، لأن لا شيء آخر يفعله سوى التراجع... لن يميته انحيازه للبيضة أو الدجاجة على الأقل، وممكن جداً أن يموت برصاصة مستثارة، تسبق الفيروس.

في مصنع رياك الذي غيّر اسمه نظرياً، فجأة من مصنع «جوهرة الجنوب»، إلى مصنع إيبولا للنسيج، تماشياً مع اللغة السائدة، وحيث لويس نوا ما زال ينتج بفزع، مستخدماً ورديات عشرة عمال، وتأتيه سندويتشات البيض والبصل، وعصائد الفيتريت والدخن، التي كان يصنعها رياك بنفسه، حتى عنده، وحفر له رياك مرحاضاً مؤقتاً، تحت الآلة، حتى لا يفارقها في وقت سخافة المستقيم وحاجته للإفراغ، وأيضاً دحرج له مرتبة القطن القديمة، على مسافة مترين من الآلة الدائرة، سمع هدير محركات السرب، نوا صرخ داخل ذهنه: نجدة... نجدة...

رياك ورشاشه على كتفه، وطبائع التمرّد القديمة تلبسه من رأسه حتى قدميه، خبّ إلى باب المصنع المغلق، فتحه في حذر، ألقى بنظرة خبيرة على السماء، وعاد يردّد:

– ليست من طائراتنا... هذه شيء آخر... عد إلى عملك يا نوا.

وكان نوا على رأس عمله بالتأكيد، وحتى خيبة الأمل التي أصابته،

لم تؤثر في قميص القطن المزركش الذي كان ينتج في تلك اللحظة. خيبة أمل ما كان لها أن تبزغ، وأمامه رشاش غير مرخص، وبيد قائد كان مشروع ديكاتور قومياً بامتياز.

المرضى الرابضون تحت الخرق المبللة، والسوائل التي باتت تسقى بالفم، بعد أن نضبت المحاليل الوريدية، لم يصابوا بأي خيبة أمل، ذلك ببساطة شديدة، لأنهم كانوا بلا أمل.

الأصحاء الذين كانوا يعملون في تبليل تلك الخرق، والسقاية، مرتدين واقيات رياك، أو الذين عادوا بعد صحوات موت كاذبة، ويراجعون الصحوات التي تحدث من حين لآخر، بغية تصنيفها حقيقية أو كاذبة، هم الذين أصيبوا بخيبة الأمل، ذلك أن انتهاء ذلك الواجب المقيت، كان كفيلاً بإراحتهم من عناء الموت الذي قد يصيبهم أيضاً، ومن عناء صحوات الموت الفضائحية التي ملوا من تكرار سماعها، وكلها ماسخة وتدور في نفس الفلك، رجل يخون امرأته، امرأة تخون زوجها، عامل منشأة صناعية يتغطرس على رئيسه المتغطرس، ويسبّه، واحدة من نساء الماخور، شاهدت عورات سلاطين القبائل المحترمين، ورسمتها في حكي بذيء، شيخ وقور يقر بأنه كتب قصائد الغزل في طالبات المدارس ومزقها، وتاجر عربي معروف بالنزاهة، يقر بأنه باع مكعبات شوربة الدجاج من ماركة ماجي، باعتبارها حلوى فاخرة. وتلك الصحوات البديعة التي كانوا ينتظرونها بشدة، من واحد مثل جيمس رياك، أو الضابط الإداري الذي يسمى محافظاً تجاوزاً، أو أي أجنبي من سكان الحيّ المحصّن ضد إيبولا، يمنحهم ترفاً حضارياً، لم تحدث أبداً.

في البيت الراقي، حيث روادي مونتي يتخبّط بالأثاث، ساعياً وراء الخبر، ومجهزاً معنوياته كلها، للمغادرة في أسرع وقت، باعتبار أن النجدة جاءت من أجله وحده، كانت ترتسم واحدة من خيبات الأمل المحكمة، عادت دارينا من الشارع، تبكي في وهن، وعاد الفرنكوفونيون، وقد تضعضعت ملامحهم، ليعلن الجميع، أن لا شيء يخص أنزارا الوطنية، ومأساتها في تلك النجدة، وإن كان يريد استعادة نجوميته، فعليه أن يصبر.

– اسمع...

صرخ أحد المنظمين، وقد بات في مقدوره الآن، أن يفك حزام الجلد من وسطه، ويجلد به نجماً عالقاً في الوهم، لا يعرف أحد إن كان سيتلألأ من جديد أم لا، أو يلتقط ذلك الكرسي الخشبي ويحطمه على رأسه:

– اسمع يا روادي... للمرة الألف، أنت ضحية مثل الجميع... ألا تفهم؟

دارينا، تحت وهم إصابتها بالمرض، بدأت تتعقل، واتبعت ردة فعل الحزن المشهورة في الطب، من دون أن تكون قد سمعت بها من قبل:

اندهاش

إنكار

استسلام

أمل

لقد كانت ما زالت تأمل، وتأمل إلى ما لا نهاية، وبذلك نجت بمعجزة من خيبة الأمل الكبيرة المسيطرة.

الذي حدث أن الطائرات التي صنعت غبارها وفوضاها، لم تكن للضحايا، ولا لمعاوني الضحايا، ولا لأي مؤمل فاشل يعيش في تلك التربة الموبوءة، كانت في الواقع للذين لن يكونوا ضحايا على الإطلاق. طائرات إجلاء دولية، حطت بوقار في إحدى الحدائق الأجنبية داخل أنزارا، وانتشلت بنشاط كبير، كل الذين يقيمون بعيداً عن أوطانهم في مهمات تصنف إنسانية، بمن فيهم أولئك المغامرون، المفترض أن منازلة أمراض الدول الفقيرة، وأوبئتها جزء هام من مغامراتهم، ستعود الطائرات مجدداً... هكذا أكد قائدوها، لمندوبي الحكومة، وزعماء القبائل، الذين اجتمعوا على عجل، ونشطوا إلى الحيّ الراقي، حيث هبطت. ستعود بأطباء وعمال إغاثة، ومحاليل تروية، تأكدوا.

كانت دورة أمل جديدة، لم يرد أن يتبعها أحد... وتنتهي بالخيبة كسابقتها.

16

القصة لم تنته بعد، والاحتمالات كثيرة ومعقدة،

من المحتمل جداً، أن يكون إيبولا قد شبع، أو هزته صحوة ضمير مباغتة، فيعفو عن الجميع، كما عفا من قبل عن بعضهم، يتيح لهم صحوات موت فضائحية كاذبة، ويعيدهم إلى الحياة الفقيرة الوعرة من جديد، والتي كأنوا يألفونها ويحبونها رغم ذلك, قبل أن يأتي مهاجراً، داخل الدم الفاجر لعامل النسيج لويس نوا، وأن يرحل شهر أغسطس ببؤسه، ورذالته، ويهل ديسمبر نظيف، برغم الحر والرطوبة.

من المحتمل أن تعود النجدة من جديد، ومعها ما يقض مضجع إيبولا، يجبره على الفرار إلى مكان آخر، لا يعرفه فيه أحد، أو يعود إلى حالة استرخائه القديم، في قرية من قرى الكونغو، قبل تلك الانطلاقة الكبرى المحيّرة.

من المحتمل أن يظل البيت الراقي الذي يؤوي عازف الغيتار الأعمى روادي مونتي، والفتاة الآملة بشدة دارينا، مقر إقامة شبه دائم، تنطبع فيه بعض الذكريات القابلة لاستعادتها في المستقبل، أن يتزوج أحد الفرنكوفونيين سراً من دارينا، وأن تصبح ربة بيت مسالمة، تعتني بأسرتها، وتواصل إلى حد ما، وظيفة العصا، في تمريض رجل

عجوز، كان نجماً في ما مضى، وانطفأ بلا خيار آخر سوى أن ينطفئ، وذلك الغيتار العريق الذي رافق النجومية سنوات طويلة، من المحتمل أن يكسره طفل، أو تتبرز عليه قطة، أو يُسرق، أو يضيع في فوضى الحياة ولا يعثر عليه أحد.

من المحتمل جداً، أن يتبع لويس نوا، مقولة أن الضغط يولد الانفجار، يعيد الهيبة للقاتل التخيّلي الذي ألغاه عدة مرات من ذهنه، ويستغل غفوة ما، أو شرود ذهن من جيمس رياك، ويحوله إلى قاتل حقيقي، في مصنع مغلق ومحاط بالحذر. وساعتها سيقال إن جيمس رياك غفا ومدفعه الرشاش في صدره، وانطلقت منه زخات رصاص غزيزة، أودت بحياة حافلة، لواحد من زعماء العصابات المتمردة الذين كرّمتهم الدولة، بعد أن ألقوا أسلحتهم، وخرجوا من الغابات، وتحوّلوا إلى منتجين وطنيين حقيقيين، ساعتها لن تكون ثمة صحوة موت مبجلة سينتظرها أحد، لأن موت الرصاص لا يمنح الفرصة، حتى لحك أنف مستعر، أو إخراج ريح عالقة بالمستقيم.

بالنسبة للحدود، ربما لا يطرأ تغيير على الإطلاق، وربما يطرأ بعض التغيير، ربما تنشأ من العدم، مدينة جديدة، ستسمّى بأي اسم، مدينة عادية، فيها شوارع ومتاجر، وملاهٍ، ومواخير، وزيجات وطلاقات وقصص حب كاملة وناقصة، ومقابر للذين سيموتون في ما بعد، وشارع شبيه بشارع زومبي، يحوّله عامل بلدية منبهر إلى شارع اسمه جمادي أحمد، يمتلكه ساحر عجوز ما عاد قادراً حتى على إنتاج الحيل العادية المألوفة.

في عشش الكرتون، أحقر حيّ سكني في منطقة أنزارا، جنوب السودان، يكبر لويس نوا على وقع طفولة بائسة. الشاب الذي يعمل في مصنع للنسيج، يقرّر الزواج بأول فتاة يراها تبتسم، تينا بائعة الماء في الشوارع، ستصبح زوجته. لكن العامل البسيط ما يلبث أن يخونها مع خادمة الغرف في نزل للفقراء، في كينشاسا.

وفي ظهر يوم حارّ، سيلاحق «إيبولا»، الفيروس القاتل الذي ضرب الكونغو، جسد نوا ليسكن دمه. يغادر الفتى الأفريقي إلى بلاده، بعد رحلة حزن إلى الكونغو، ليصبح من دون أن يدري جسراً يعبر عليه المرض المميت إلى أنزارا.

عبر فكرة القتل المحتمل، يرصد أمير تاج السر عوالم غرائبية، محاولاً إيجاد مدينة عادية، فيها شوارع ومتاجر، وملاهٍ ومواخير، وزيجات وطلاقات وقصص حب كاملة وناقصة.

أمير تاج السر روائي سوداني. يعمل طبيباً للأمراض الباطنية في قطر. كتب الشعر مبكراً، ثم اتجه لكتابة الرواية في أواخر الثمانينيات. وصلت روايته «صائد اليرقات» للقائمة القصيرة لجائزة بوكر العربية ٢٠١١، وتُرجم عدد من أعماله إلى الإنكليزية والفرنسية والإيطالية.

ISBN 978-1-85516-861-9
9 781855 168619 >

DAR AL SAQI
دار الساقي